عهود سمير العديل

رواية

سرطان

في غصن شجرة

رواية

سرطان في غصن شجرة

عهود سمير العديل

جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف ©

المؤلف: عهود سمير العديل

اسم الكتاب: سرطان في غصن شجرة

نوع الكتاب: رواية

الناشر: نقش للنشر

https://www.facebook.com/naqsh.pub

إيميل: naqsh.pub1@gmail.com

تصميم الغلاف: نقش للنشر

مراجعة وتنقيح: د. حمزة عبدالله الضياني

الطبعة: الأولى ٢٠١٨م

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بصنعاء: ٩٩٩ للعام ٢٠١٨م

يسمح بنشر أجزاء هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين الهاشتاق: #سرطان_في_غصن_شجرة و #ohood_sameer

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

للتواصل مع المؤلف:

فيس بوك: www.facebook.com/ohood.aladeel

إخلاء مسؤولية:

الآراء المنشورة بأسماء كاتبيها لا تعبر بالضرورة عن رأي دار نقش، ولا تتحمل دار نقش أي مسؤولية مترتبة على محتوى ما يتم نشره.

يُعدّ هذا العمل الأول للكاتبة

تنبيه

قصة الفتاة ليست حقيقية!

رسالة لن تصل:

"لا ترهق نفسك للسعي وراء السراب فتموّه نفسك وتفقدها."

اعتذار

لمرضى السرطان..
أعتذر لِكَوني سلّطتُ أضوائي عليكم لأقاسمكم عيش معاناتكم..
أعتذر عن حقيقةِ بشاعةِ هذا المرض الذي لا يعلمه أحدٌ غيركم..

إهداء

إهداء خاص إلى أصدقائي..

إلى كل من شاركني بصورةٍ زرقاء اللون، أو بصورةٍ لكتب ومكتبات، أو شاركني بروايات وكتب.. شكراً لاهتمامكم بما أحب..

شكراً بحجم السماء لتلك الكُتب التي أثارت فيَّ حرب الكلمات، وأنارت طريقي للكتابة بطريقة أكثر جمالاً..

إهداء كلماتي المثقلة بمعانيها العميقة، التي تُثير التساؤلات حولها وتحوّل من لا يفهمها إلى ناقد مزعج يُحفزني أن أستمر بها لأن تلك الكلمات لا تناسبه بوجه الخصوص؛ إلى ذلك الذي لا يجد من يفهمه..

إليكَ أيها القارئ..

إن لم يسعفني الوقت لأستمع إلى رأيك حول كتابتي الأولى؛ سيسعفني في كتاباتي القادمة، أؤمن بذلك فالوقت لا يأخذ الأشياء وإنما يأخرها قليلاً فقط.. وإن كانت هذه الرواية هي روايتك الأولى في القراءة فاعذرني لأني لست سوى ريشة من طير جريح أعاد ترتيب أبجد هوز.. وإن أحببته بعد ذلك وتريد الشروع في كتابة روايتك الخاصة فلتبدأ ولا تنتظر أحداً، فلا أحد ينتظرك على قارعة الطريق، اختر طريقك واسْعَ إليه بكلّ جدّ لأنك حتماً ستصل لأنه وعد الله عز وجل ﴿وقل أعملوا فسير الله عملكم﴾، ولا تؤمن بالحظ فلا وجود له في الحقيقة، وإنما هو شعار الفشل ليس إلا..

لا تركن شماعةً في زاوية غرفتك لتعلق عليها أخطاءك.. اعترف بأخطائك وعش بشريّتك بكل عدل؛ فلم يفسد هذا العالم إلا ادّعاء المثالية.. كن فاسداً واعترف؛ سيغفر الله لك، لكن لا تُنِر طريق الأوهام لضعاف النفوس، رفقاً بهم، لقد دمرهم الوقت، لا تكمل عليهم بفلسفتك الساذجة..

لن يربت أحدٌ بحبّ على كتفك سوى نفسك فانهض بمفردك، اجعل الجميع أصدقاءك وثق بنفسك فقط.. وبما أن رئتيك لا تزالان تستنشقان هذا الأكسجين الخانق المتحور إلى ثاني أكسيد الكربون فأنت حيٌّ تُرزَق، ومشوارك لم ينتهِ بعد.. دعك من هراء هذا الوطن بأنك لن تستطيع النجاح بوطن مليء باللا شيء سوى الحروب.. أنت لا تعلم؛ فلعلّك تكون ثغرة البداية لسلامِه.. اسعَ؛ لا تجعل سيف الوقت يقطعك كأضحية عيد الأضحى، كن الفاعل بها وتوكّل على مدبر الشؤون وميسر الأمور.. فلْتَفعلها لمرة واحدة على الأقل قبل أن تموت.. إنها لحظة تستحق التجربة..!

أتمنى لك قراءة ممتعة..

نَحنُ من نصنعُ أنفسَنا، نرتقي للسماءِ؛ فهُناك موقعنا الأصلي..
ولولا خطيئة أبينا آدم لما طالت القاعَ أقدامُنا..
سنرجع لموطننا في السماء فلا موطن لمن نُفي من وطنِه..

(١)

اعتقدت أنّ لا أحد يبقى للأبد، لكن أحداً ما غَيَّرَ من اعتقادي، ثم رحل!

****

(٢١ يوليو ١٩٩٠م، مستشفى دلهي للأورام – الهند)

"تم تحديد مصيري بتلك الورقة التي ستسقط يوماً من عاليتِها، سأسقطُ أنا أيضاً، ثمَّ سأُحَلِّقُ إلى عالمٍ أسكنُ فيه بمفردي.. أعرفُ الكثيرَ ممن يمكثون هناك، هل ملامحهم كما الصور التي رأيتها؟! أم أنهم أصبحوا أجملَ في السماء؟! هل ينتظرني أهلٌ آخرون لأتفاجأ كالعادة بأنهم لم يكونوا سوى أطياف راحلة لم تلامسهم الأرض لوقتٍ طويل، وأني ما زلت أسكن بين أسراب الطيور المهاجرة بين الحين والآخر؟! من يمسكني هذه المرة من الإفلات مني؟!"

تمتَمتْ بتلكَ الأحرف المشبعة بفقدان الأمل من النجاة، مودعةً ما ترى، مستقبلةً ما هو آتٍ في الحياة الأخرى، لم تغدُ اليوم مثل البارحة وجهاً شحيح البياض، مائل الصفار، جسدها المتمثل بالاعتصار حول نفسه لتَحسس ما تبقى منه، يبدو كما لو أنه مُقلّم بعناية إلى أن نُحت على هذه الشاكلة، عيناها الضائعتان بكهفِ جفنيها قاتم السواد، الخالي من ستار رمشها، آهات الألم الشبه مسموعة وأنين الليل مؤنسها الوحيد، القوة هي ابتسامتها التي لم تركن جانباً راغبةً بالنزول من شفتيها، كانت أوفى الركاب لموقف ثغرها الحسن.. المجد لمرضى السرطان.. المجد لهم..

قُطِع حبلُ تفكيرها بصوتٍ تنغَّمَتْ عليه فأصبح ملاذها الوحيد الذي تلجأ إليه كلما أرادت اللجوء، فقد أصبح صوته الراحة التي تُباغت حنايا قلبها عندما يتحدث معها أو يقصُ عليها القَصص، فقد أحبها كما لم يحِبب من قبل.. سألتُهُ ذات نهار: "أتحبني!؟"، فأجابني: "أخاف أن أخبركِ أن عهد لم تترك الكثير بي يا بيال.."

لم أستوعب ما أُلقيَ على مسمعي ذلك النهار! قلت له: "رحيم خان؛ يبدو أن عليك الابتعاد عن هذه الفتاة.."، هذا ما عزمتُهُ حينها ولم أعلم أنني سأحبها أكثرَ مِنه فيصبحُ حديثَ مساءنا وصباحنا منافسة من سيعتني بها هذه المرة!

باغت رحيم صمتها:

- الحلوة تسرح كثيراً هذه الأيام، أعتقد أنه الحب؛ أليس كذلك؟!

بضحكةٍ مُتعَبَةٍ تُجيبه:

- ومن سيقبل بفتاةٍ دون شَعرٍ تقومُ بتسريحِهِ ليلة زفافها؟! أو دون حاجبين كذلك المارد الأزرق في حكاية علاء الدين؟!

تُدير وجهها البريء المرهق عن تلك الآلات التي بدت وكأنها صديقتها، أو كما لو أنها هي ولكن بالشكل الحديدي المعتاد لتلك الأجهزة للناحية الأخرى، مُلقيةً ناظرَيها إلى ورقةٍ نسيها الخريف الماضي متأرجحةً على غصن شجرةٍ تقابل نافذة زنزانتها، كطيرٍ بلا أجنحة لا يُهاجر، يتمايلُ مع الرياح يميناً ويساراً بصمتٍ يحكي عن أملهِ بعودة جناحهِ مرةً على الأقلّ ليسابقَ سربه الذي لم ينتظره.. تنهدت مُكملةً حديثها:

- أنا لستُ **ياسمين** ابنة السلطان ليأتي علاء الدين وينقذني من الوزير السرطان الذي تملّكني وسكن أوردتي.. طبيب رحيم خان، لقد أصابني عشق الوزير السرطان؛ إنهُ العشق وما يحدِثه من شقاءٍ إن لم يكُن سعادة، قد أتى وتاه فيَّ كما تمنيتُ دائماً، لكنهُ عِشقٌ من نوعٍ آخر.. إنّهُ فعلاً من نوع آخر..!

أغلقت عينيها البنيّتَين مُنتقلةً إلى عالمٍ هادئ كثيراً، الكثير من السلام يلبسها كمدينةٍ بعد حرب أودت بحياة الكثيرين.. كانت مدينةً نائمةً ليس إلا.. ستصحو وستنجو، إن لم يكن بدعاء الليل؛ سيكون ذلك بابتسامة ثغرها ولطافةِ حديثها، كلّ ما يعلمه من حولها أنها ستنجو من كل هذا، فلابد لها من أن تنجو، على الأقل من أجل رحيم الذي يُسامر الليل ويُخاطر عهد:

- ابنتي.. لا بُدَّ لكِ أن تعودي إليّ.. أتفهمين هذا يا عهد؟! لا بُدَّ من أن تعودي.. أنا أنتظركِ فلا تجعليني أُطيل انتظاركِ..

أمست كلماتها بداخل قلب رحيم تلك الليلة، تدخّلتْ بأحلامه وظلّت تُمارس زيارتها على الدوام في مُذكرته، توسّطت كلماته حياتها، كيف لفتاةٍ بعمر الزهور أن تُعاني من هذا اليأس بعد أن كانت مُفعمةً بالحياة كأنّها زهرةٌ تُخالف الخريف بالتورّد، تخالف الشتاء بالشروق، وحرارة الصيف بلين أغصانها.. لم ينمُ الصَبّار ببستانها يوماً، تصنع قوس قزح من ألوانها الخاصة عاكسةً ذلك على الجليد الساكن تحتها كبساطِ علاء الدين ليحملها في رحلةٍ جميلةٍ حول المدينة كياسمين.. زهرة دوار الشمس تُزهر ناحيةَ الشمس فكانت دوارة شمس تأخذ وميض هذا النجم نحوها، يميل العالم لنفس الاتّجاه فتجدها تميلُ إلى الاتجاه المعاكس لتحتضن اللحظات دون تعب، تارةً تداعب يتيماً، وتارةً تواسي وحدةَ القمر.. ماذا أصاب ذاك الربيع بها؟! لِمَ يستمر الخريف الثاني بها صانعاً تلك التجعدات الخمسينية بفتاة لم يطرق العشرون بابها بعد؟!

المرة الأولى التي يرى رحيم فيها عهد متمسكةً باليأس كثيراً تاركةً أملها بتلك الورقة، ترجو منها التأخر في السقوطِ، تضُمّ يديها متوسلةً ألّا تسقط اليوم، فيأتي اليوم التالي فترجوها مرة أخرى ألّا تسقط، الأمر مستمرٌّ منذ تسعين يوماً وبضع ساعات؛ صلاتها الخاشعة طالبة من الربّ تأخُرَ الخريف لخريفين آخرين هذا العام راجيةً وصول ذلك المنتظر.. (أعدكِ يا عهد، أعدكِ..)، ماذا حلّ بجيش وعودهِ؟! ما الذي أغراهُ في التخلي؟! أيها المُنتَظَر.. أين أنت؟! ما حلَّ بسمائكَ؟! أرسل شارةً إليها علّ هذه الأيام تُقلّل من مسافة الجلد السافر بها..

.

.

.

تُصارع دواءً كيماويّاً، تساقط خصلات شعرها الجميلة، ترمشُ برمشٍ واحدٍ مهددٍ بالسقوطِ، تساقط حاجِباها كما يتساقطُ الثلجُ فوق بيتٍ ريفيٍّ قديم.. ويبتسمُ ثغرُها فتبعثُ الحبَّ في أرجاءِ المنطقة، وتقفُ الحربُ لحظةً لتأمُلِها..

هي ليست مريضةَ سرطان، السرطان مريضٌ بجمالِها..

****

(٢)

الحياة اثنتان؛ الأولى تهديك نفسها، والثانية تأخذ الأولى لتكون الأولى عند غيرك!

****

(١٨ أغسطس ١٩٧٤م، صنعاء – اليمن)

مرحباً أمي..

هُنا؛ من هذا المكان الذي راهنتِ بروحكِ فيه لأجلي تاركةً الجميع خلفكِ دون رَفَّةِ جفن.. الوقتُ اختاركِ فأخذكِ مني، نجح في انتزاعي منكِ بعُمرِ سبعة أشهر وأيام قليلة من شهرهِ اللاحق، لا يعيش الطفل في الشهر الثامن إلا إعجازاً، ولا يعجزُ ذلك على الله.. ها أنا فتاة الثمانية أشهر، وأعيشُ بكامل قواي عدا بعضِ الشعرات من رأسي وحاجبيّ ورمش جفني الأيسر.. أبى الموت أن يأتي دون الذهاب بواحدةٍ منا، يا ليته استضافني أيضاً تلك الليلة، أغراني بأخذكِ في رحلةٍ للسماء، أعجبتكِ السماء أليس كذلك؟! شعوركِ بالانتماء إليها لم يسهّل عليكِ تركها!

خروج الممرضة من تلك الغرفة المشؤومة وسعادة أبي بي قبل معرفته ما يرسم له القدر في الداخل؛ السعادة تغمرهُ كما لو أن الشمس حدرت شرُوقها ذاك النهار إلى جهتِها الثالثة.. أبي شاردٌ يتخيّل ملامحي التي لم يرها بعد، كيف سأبدو؟ هل سأبدو كصورةٍ مصغرةٍ لملاكه؟ أم أنّي سأتخذ عينيه سبيلاً؟ ووجهه الدائري ملجأً؟ تُرى هل سأشبهه أم سأشبهكِ؟! رسمكِ أبي ورسمني كبستانِ زهورٍ أنبتت زهرةً صغيرة، حتى أتت كلمات الممرضة له كصعقةٍ أتقنت مسيرها خروجاً من شِجار سحابتين إلى صدره مباشرة...

- أين والد الطفل؟!

- نعم، أنا هو.

- مُباركٌ لكَ المولود؛ إنها فتاة.

- فتاة! من تشبه؟! أقصد كيف تبدو؟!

بضحكةٍ عَفَويّةٍ من الممرضة لفرحةِ أبي:

- أعتقد أنها ستكون نسخةً عن أمها،...

اخترق جدّي جدار الصمت خاطفاً الكلمات من أفواه الجميع، تاركاً المستشفى وراءه دون معرفة صحةِ أمي وصحتي، قائلاً:

- أول أحفادي فتاة! أي كارثة ستجلب هذه لنا؟!

نظر الجميع بدهشةٍ إلى جدّي، فقال أبي:

- لا بأس، اتركوه لي لاحقاً.. كيف حال عزّة والطفلة؟!

- الطفلةُ بأفضلِ حال، لكن الأم تُعاني من حالةِ نزيفٍ حادّ، نسعى لإنقاذها.

****

لو أنني قابَلتُكِ مرةً فقط.. كم ودْدتُ إخبارَكِ أن الحياةَ ليست كما قال أبي عنها يا أمي، كَشَّرَتْ عن أنيابها عابسةً لي منذ ساعتي الأولى فيها، أعلمُ أنكِ تُراقبينني من السماء وتسمعين صوت حنيني إليكِ.. أحفظُكِ عن ظهرِ قلب، عيناكِ الزرقاوان المحفوفتان بالبنّ، حاجِباكِ الكثيفان، رمشُكِ قاتِم السواد كما لو أن الجمال تعمد بناء مصنع الكُحل فيهما، أنفُكِ المُقوّس الصغير، شَفتاكِ كحبّةِ الكرز، كُنتِ ملاكاً قُصَّ جنَاحاهُ ليمشي على الأرضِ..

تَرَكتْ الممرضة أبي ومن معه في حيرةٍ مما سيحدثُ لكِ؛ الحائط المقابل لتلك الوجوه التي تتأرجح نظراتهم تارةً للأعلى وتارةً تصطدم ببعضها.. وبعد قَلَقٍ صامتٍ دام لأكثر من نصف ساعةٍ، خرجت الممرضة باحثةً عن زُمرةِ دَمٍ تناسبُ زمرتكِ (أُو سالب).. الـ(أُو سالب) هي فصيلةُ الدم الوحيدة التي تُعطي الحياةَ لجميع الفصائل الأُخرى وتنقذ الجميع بينما لا تأخذ إلا من فصيلتها فقط! لقد بلغتِ أعلى معاني الوفاء حتى بسائل انسياب

أوردتكِ.. فُتِحَ مِصرَاعُ الباب أخيراً، فخرجت الممرضة سائلةً الجميع عن زُمرة الدم، فأجابها أبي؛ وكيف لا يُجيبها وهو الذي ترك كل ما لا يُترَك لأجلكِ!

- المريضة بحاجةٍ لثلاثِ قِرَبٍ من الدمِ زُمرة (أُو موجب).

- إنها زُمرَتي.

- تعالَ معي للفحص وسحب الزمرة.

حينما سُحِبَ الدم في المختبر، نبضات أبي المتسارعة الهامسة بأدعيةٍ خفيفةٍ تكادُ تُسمع بأن يرحم الموت قلبهُ العاجز عن فقد توأمِ روحه ونصفه الجميل في هذا العالم.. تتدافع كريات دمه بأنواعها الثلاث - الحمراء والبيضاء والصفائح - بصرخاتٍ وأصواتٍ صادقةٍ من التضحية، نداء استغاثةٍ من القلب إلى الجسد بإنقاذ روحٍ تنتظر.. من أحيا نفساً فكأنما أحيا الجميع، وأنا جميع الذين رحلوا من بعدكِ!

في الممر الذي بدا طويلاً لا حدود نهائية له، كلّما قاربت الممرضة الوصولَ لتلك الغرفة الخاطفة، ابتعدت مُظهِرَةً انتصارها باختطافكِ.. باتت السنيين تدور خلال ذاك الممر، بثلاثة عشر شهرٍ، بستة وثلاثين يوماً، خمسةٍ وعشرين ساعة، بدقيقتها التسعين، بسبعين ثانية، وثوانيها الزاحفة بلحظاتها، كانت أطول دقيقتين مرت خلال عمر أبي.. تملؤ جدرانه زفرات شهيق متسارعة ناحية الغرفة، أخيراً تصل الممرضة حاملةً زُمرة الحُب، تحمل أبي بكفيها إليكِ خلال ذاك الباب الفاصل بينكما، جسدهُ بقي خارجاً بينما زُمرته وروحه تسلّلا من خلال أنفاسكِ لرؤيتكِ، انتظارٌ يبقى ينتظر ونفادُ صبرٍ لا ينفد، حيرةٌ لا سكون لها، هروبٌ من الواقع مغمىً على قلبه، ردت ستائر رمشه ساترةً إمطار اليأس من عينيه.. شفتاه لا تتوقفان عن الاستغفار وتلاوة بعضٍ من الآيات المقدسة، "يا رب" تتكرر ألفاً بين لحظةٍ وأختها..

فُتِحَ باب الغرفةِ المشُؤومة تلك معلناً الضوء الأحمر؛ حالة فقدان المريض، ملوّحاً بشعاره الأبيض لاستسلامه أو ربما فشله الذريع الذي ألحقه بهذه الآمال.. حالة فقدان الحياة

من على الحياة، كيف ستعيش الأرض الآن؟! هل ستختنق لأن أكسجينها فُقِدَ في تلك الغرفة؟! إشارتها الحمراء هل هي أجراس إنذار لما سيُصاب به الكون ومجرة درب التبانة؟! كيف ستتولى المسير بمفردها بعد حدوث هذا؟!

هه لقد بالغتُ في مشاعر هذا العالم.. عذراً أمي، إنه مشغولٌ بقليلٍ من التفاهات التي جعلت منه مُتبلّداً كلّياً.. لم يحدث شيء به كما توقعتُ فقد نظر إلينا بنظرةٍ مؤسفة لما حدث ثم مضى أو عاد ربما، لم يربت على كتفي وقلب أبي حتى.. تفردنا بكارثتنا ولم يكن سوانا من يعاني..

الطبيب مطأطِئٌ رأسه بصوتٍ شاحِب خَنَقَ أبي:

- فقدنا المريضة!

فتورٌ تلبَّسَ أجساد الحاضرين، ولاوعيٌ تحلّت به اللحظات، آذانٌ غير صاغيةٍ لما يُقال، لم يكن هناك سوى صدىً مخيف يردد: "فقدنا المريضة..".

روحٌ ذهبت للسماء مُـخَـلِّفَةً وراءها أشلاء أرواحٍ لا يمكن تضميد جراحها، مُـخَـلِّفَةً قلوباً من ذوي الاحتياجات الخاصّةِ تحتاج لدار الرعاية المكثفة، أُصيبت تماماً بالشلل.. وهل سترمّنا الأيام كما قال أبي؟! هل سترمّني؟! أم أنها ستستمر في رميي هكذا؟!

الموتُ حقّ؛ ليتَهُ حُرِمَ مِن الأمهات..

****

سقط جاثياً كجثةٍ هامدةٍ أُصيبتْ بصاعقةٍ من شِجار سحابتين مُتمركزةٍ مُنتصفَ صدرِه مائلةٍ قليلاً إلى يساره، ابْيَضّتْ عيناهُ فبلغه من حُزنِ يعقوب يوسفاً كما لو أن الفُقدان يُعيدُ نفسه.. أَغرى إبليسُ اليأسَ بثمرةِ قلبه، أغرقهُ طوفان نوح ولم يحمل زوجاً حتى من اللا شيء، كأنما نجا بنفسهِ ونفسهُ لا تنجو، لم تُجدِ نفعاً عصا موسى ليضربَ مُنتصف القلب فتمرُ آمِنة، فرعون كسب الرِهان هذه المرة، ونارُ إبراهيم التهمته بشراهة يأجوج ومأجوج،

فأصابته نومة أصحاب الكهف وقُلِّبَ عن يمينه وشماله عسى أن يتبقى منه شفافة روح لم تلتحم بالأرض..

ما بال مكعّب الغرف هذه يجتذبنا واحداً تلو الآخر؟! أبي مُتَّصِلٌ بتلك الأجهزة الملتصقة بجسدهِ.. انهيارٌ عصبيّ؛ هكذا أطلق الطبيب على ذلك الشيء الذي أسقط أبي، أمطر جفنيه بعد تلك الصاعقة التي ضربت قلبه! تلاشت وحدته حينما سمع صوت رفيقه الودود، رفيق دربه منذ الصغر.. العم خالد ممسكاً يد أبي:

- هناك فتاةٌ تنتظرك في حضانة المستشفى وصحتها جيدة جداً.. اعتنِ بما تبقى من عزة.
- ماذا حدث يا خالد؟! ماذا حدث؟! البارحة كانت بأفضل حال وتعلم أن موعد ولادتها اليوم!
- سألت الطبيب يا عُمر.. أخبرني أنها تعرضت لارتفاع ضغط الدم بشكلٍ غير متوقع قبل الولادة، ثم سمعتُ حديث الأطباء أن شخصاً واحداً فقط سينجو؛ الأم أو الطفلة، وهذا الاحتمال بنسبةٍ عالية، وقبل إدخالها غرفة العمليات جعلت الطبيب يَعِدُها أن يُنقذ الطفل، وأن لا يُخبر أحداً أنَّ حياتها مُعرّضة للخطر..
- كيف للطبيب أن يستمع لها؟! كان عليه أن يُخبرني.. لقد قتل عزة يا خالد، قتلها..
- عمر.. تحلَّ بالهدوء، الصراخ ليس لصالحك ولا لصالح ابنتك في هذه الفترة.. كانت ستُقتل عزّة ألف مرة إن فقدت ابنتها.. أنت تعلم ذلك جيداً.
- ها أنا يا خالد قُتلت ألفَي مرة مُنذ ساعتين..

مساء اليوم التالي خرج أبي من المستشفى، وفي السابعة مساءً ابتدأت مراسيم الدفن، لم يَكُن دفنكِ بطريقةٍ إسلامية، فقد كان لديانتكِ الأحقية في اتّباع مراسيم دفنكِ.. وبعد أن غُسلتِ وكُفّنتِ، أُقيمَتْ **صلاة القاديش** – الصلاة على الميت في الديانة اليهودية – ثمّ دُفِنتِ، وفي كل مرةٍ أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله اثنتَين، واحدة لكِ وواحدة لي.. فليتقبلك الله من المسلمين يا أمي.. فليتقبلكِ؛ هذا كل ما أرجوه..

أَتَـمّوا المراسيم، فتحت كِلا العائلتين أبواب العزاء في منزلها، ظلت لثلاث أيامٍ بلياليها، عُدنا في الليلة الثالثة إلى منزلكِ وأبي.. لم تكُن السماء ماطرةً أو حزينةً حتى لما حدث معنا أبداً؛ لقد كانت مُشرقةً بشُعاعِ لونِها الأزرق القاتم، حاضنةً القمر بكفيها تضمّه بلطفٍ إلى صدرها، ناثرةً تلك النجوم كحباتِ لؤلؤٍ في الفضاء.. وكلّ شيءٍ كان يبدو على ما يرام، عداي وقلب أبي..

نزحنا لكوكب **بلوتو** تلك الأيام، بل أعتقدُ أنها كانت أشهر، حيث البرد القارص المجمّد لدموع عينيّ وأبي، لم يكن هناك أيّ دفءٍ في عالمنا، حتى ذلك الموقد السخيف نفث الثلج بدلاً عن النار! أَذّنْ أبي تلك الليلة على مسمعي ودموعه تخالط شفتيه وتبلورها زفرات شهيقه الباردة من فمه متذكراً كلماتكِ أنكِ ستُحسنين تربيتي وتَتْلين لي بعض الآيات القرآنية ليلاً.. كنتِ ستتلينها حقاً، أعلمُ ذلك.

بصوتٍ متقطع:

اللهُ أكبر اللهُ أكبر .. اللهُ أكبر اللهُ أكبر.

أشهدُ أن لا إله إلا الله .. أشهدُ أن لا إله إلا الله.

أشهدُ أن محمداً رسول الله .. أشهدُ أن محمداً رسول الله.

حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة .. حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح.

اللهُ أكبر اللهُ أكبر .. لا إله إلا الله..

هذا ما اعتدتُ سماعه بهمسٍ من أبي كلّ عيد ميلادٍ لي، كأنّي أُولد من جديد، فيدخلني الإسلام مرةً أُخرى.. تلك الآيات التي كُنتِ ستتعلمينها لأجلي حفظتها بحبٍّ كما لو أنكِ معي..

في الثامن عشر من شهر أغسطس، أذانٌ يردد من منبر أبي على صرح قلبي، وآياتٌ تُتلى نثراً على قبركِ، وأشهد أن لا إله الا الله؛ أشهد أن محمداً رسول الله، استغفارٌ يزيّن ضريحك كلَّ عام، اعتنقناكِ ديناً فكانت هذه إحدى طقوسكِ.. عدا عيدي هذا، لم يُؤذَّن على مسمعي.. إني أنتظر!

****

(٣)

حنينُ يعتصرني، وهذا ما لا أستطيعُ مقاومته!

****

(في منزل جدي، ديسمبر لذات العام)

عُدتُ مع أبي لمنزل جدّي لرغبتهِ وجدتي بذلك، منزلٌ قديمُ الطراز يقع على مرتفع الجبال من قريةٍ خارج صنعاء بأميالٍ قليلة، منزلٌ ذو ثلاثة طوابق؛ الطابق الأول كان عبارة عن دكاكين لبيع الفضيات والملابس اليمنية القديمة والتراثية، ودكّان آخر تُباع فيه الوجبات الشعبية المطهوّة بعناية، وآخر **مقهى ريف صنعاء** لبيع الشاي بالحليب والبن اليمني المعروف بلذة طعمه.. أما طابقه الثاني فقد كانت جميع غرفه للنوم؛ غرفة جدي وجدتي، غرفة عمتيّ – نور ونورا – وغرفة أبي.. والطابق الثالث فقد كان يحوي مجلِسَين، وغرفة ضيوفٍ للمناسبات العادية.. مجلس جدي مطرزٌ تماماً بالطراز الصنعاني القديم بأقمشةٍ مصنوعةٍ بعنايةٍ فائقة، المجلس مرتفع بعض الشيء، ومساند مستديرة منثورة على المجلس بطريقة مرموقة تخطف الأنظار، والمجلس الآخر لجدتي فكما تعلمين أن جدتي من الجنوب اليمني (عدنيّة)، إذ كان مجلسها مطرزاً بالطراز العدني الأكثر أناقة.. ويوجد على السطح غرفةٌ تسمى **منظرة** أو **طيرمانة**، تستطيعين من خلال إحدى نوافذها رؤية القرية بأكملها كشيءٍ من الخيال، أتذكر ذلك المنظر منذ أن كنتُ في الخامسة.

وفي الساحة الخلفية للمنزل تقع **الدَّيْمَة** (المطبخ اليمني القديم)، كانت جدتي تخبز هناك وأيضا تصنع فيه **اللحوح** (خبز يمني رقيق مليء بالثقوب الناتجة عن الفقاعات) الذي يتم استخدامه في الكثير من الأطباق اليمنية الشعبية، وأكله بأكثر من طريقة؛ كأن يتم أكله مع اللبن ويسمى **شفوت**، أو يتم أكله مع **السحاوق** (معصور الطماطم مع البسباس)؛ كم هذا شهيٌّ حقاً! طهوتُ ذلك للطبيب رحيم وزوجته ذات يوم وأعجبهما كثيراً..

أتعلمين؟ أشتهيه لكن لا أستطيع أكله؛ فالسرطان بداخلي لا يروق له ما أشتهي.. كم يؤسفني هذا! حتى هذه التفاصيل البسيطة أصبح من الصعب الوصول إليها..

قدّمَت جدتي وجبة الفطور في السابعة صباحاً، نزل الجميع لتناوله في غرفة الطعام، دار الكثير من الحديث بينهم حتى أفصحت جدتي عما تخبئه من اقتراحٍ يخصني وأبي:

- سآخذ عهد لمنزل خالتها لتعتني بها، لا أنا ولا أُختاكَ نستطيعُ قضاء وقتنا معها..

مُلوِّحَةً بيدها عالياً، وأكملت:

- لقد اخترت لك فتاةً من القرية ستعجبك وتنسيك تلك (العبرية) التي فضلتها عنّا هداك الله..

علمتُ أنكِ يهودية من يهود اليمن من عائلة يهودية، ترعرعتِ على مبادئ منحدرة للسلام والتعايش بين تلك الفوارق الدينية على عكس قبيلتكِ التي لطالما اشتدت وتصلّبت لرأيها أنهم خلفاء الله في الأرض ولا يَحقُّ لغيرهم أن يكونوا فيها أو عليها.. ليس هناك ما يثير الدهشة؛ فبما أنهم من قبائل يمنية بأعراق يهودية إذاً وداعاً للسّلام وأهلاً بالحرب!

أخبرتني ماما عطر أيضاً أنكِ واحدة من أعضاء **منظمة التحرير الفلسطينية** ضد الاحتلال الصهيوني، نفورك الدائم واستنكاركِ لما يحدث في فلسطين أثار استغراب عمتيَّ كثيراً كما لو أنك لستِ من اليهود.. لم يفقدكِ أبي وأنا فقط، بل فقدكِ الحجر، والشجر، والمطر.. إنها تُمطر على غير العادة وكأن السماء بها من الحنين ما بي، تغاريد الطيور صباحاً تبدو شاحبةً كما لو أنها فقدت حنجرتها أو شيئاً عميقاً بداخلها، نافذة المنزل لم تعد تُفتح فأمسى الغبار يحتلّها ولا أحد هناك ليقاوم احتلالها، نظرات ذاهبة وعائدة من وإلى تلك النافذة؛ فالخارج ينظر للداخل والداخل يسأل الخارج هل مررتِ به؟! أم أن البارحة كاليوم يبحث ولا يجدكِ؟!

كنتِ قُدساً تُدافع عن قدسٍ، وعزة تَبكي غزة، سيشهدُ محرابُكِ الغارق بدموعِكِ، الذي يشتاقُ إليك منذ خمسة عشر عام.. حين أمضيتِ تصلّين لأجل السلام لهذه البلاد والقدس..

****

(٤)

فقدت نفسي أربعاً،
حين رحلتِ اثنتين، وحين رَحَلَ اثنتين..

****

هذا ما كتبه أبي في دفتر مذكراته الكائن في صندوقه السرّي الذي لم يتجرأ أحدٌ على فتحه من قبل؛ تركه لي، وها أنا مع صندوق ذكرياتهِ أحيا.. هذه هي الرسالة الأولى التي نُقِشَت إليكِ ولم تصل فقد احتفظ بها أبي فهو يحبّ التفرد بلحظاته الأولى دوماً لنفسه كي لا يُفسدها سرطان الذكريات كما أفسدني، فأنا لحظته الأولى التي لم يحتفظ بها في هذا الصندوق!

(١ أغسطس ١٩٧٠م، جامعة الأزهر – مصر)

"سبقَ لي أن رأيتُ كريستالات الليل تتزين بها السماء متباهيةً بلمعان بريقها، كما رأيتُ تَبَخْتُرَ القمرِ مُكتملاً باستدارةِ بدرٍ يخطفُ أرماقَ السائرين، يسمعُ حنين العاشقين، ويواسي هموم الساهرين، يُلملم نجومهُ فيعيدُ نثرَها لعلّها تُحَرِّرُ عالِقَاً في النظرةِ الأولى منذُ خمسين دقيقة! أمّا الشمس؛ فقد اختبَأَتْ خجلاً منكِ تاركَةً عرشها في السماءِ لك، فهو مقامٌ يليقُ بمقامكِ.. قُرب غزل السُحُب البيضاء، كملكةٍ تُوِّجَت على مملكةِ الفضاء ليتواضع كلّ من عليها مُقَبِّلاً يديكِ وإنّي لأغار..

تعمد ذاك الشعاع مصارعة عينيكِ ليعكس زرقة نهر نيل مصر منهُما فيصبّ مجراه مرةً أخرى إلى النهر، تاهت بي جوارحي وتُهت، تخبطت الكلمات فلم تسعفني فلسفتها أو آدابها، فكلما رسمت حروفاً قائمةً بكِ انحنت انحناء ركوع خاشعٍ، وإطالة سجود تائب..

بهت الطقس حين تعالت ضحكتكِ، واعتصرت شُجيرات التوت بخديكِ، فأدمعت سُحيبات السماء ضاحكةً معكِ، سِبحَةً من اللؤلؤ الأبيض بيد زاهد مبشر بالجنة قدمت من

مكة فيُستغفر بواسطتكِ، ماء زمزم عليها تلاوات عطِرة من المسجد الحرام فتمثلتِ بعافية الروح، أصبحتُ وأمسيتُ أُسبحُ في صنع الله، وأردد جلّ من لا يسهو..

أخبريني كيف لطرق روما أن تنحدر إليكِ؟! دُلني يا رب الحيارى، دُلني، فإنّي أضعتُ نفسي في متاهاتها كسجن المتاهات التونسية، قلبها مَلك لا يرحم أحداً، يجلدُ كل من يقف أمامه، أبى قلبي أن يُرسي مرساته إلا على ميناءكِ فأكرمي ضيفكِ، وأنتِ أهل الكرم..

كيف لي أن أستعيدَ نفسي الآن؟ نصفي ذهب إليكِ ونصفي الآخر يتوعّد أيضاً بالذهاب! منذ خمسين دقيقة فقدتني، أعيدي لي نصفيّ لأغدو بعيداً.. سأرحل، سأذوب كفصّ ملح وأبحر باتّجاه الغربِ، وأعود لنفسي.. لشرقيتي لقد عدتُ، فسَعدتُ جداً لعودتي، فوجدتني أعود إليكِ! لا مسار ولا شرود منك إلا إليكِ..

مرحباً!

لقد فقدتُ شيئاً أعتقدُ أنّكِ من التقطه.. عذراً لا أقصدُ أنّكِ لِصَّة، لكنّي رأيته يُشِعّ فيكِ نوراً وأنا الذي لا ينطفئ قلبي، وأنا نورٌ له كمشكاةٍ فيها زجاجة، الزجاجة من كوكبٍ مُضيء.. هل لي باستعادة كوكبي؟! أو على الأقل تابع من توابعه يا قمري!

لا تُبحلقي بمقلتيكِ هكذا بي فأنا رجل شرقي لا يَلفتني سوى كبريائي، وتلك الأشياء التي لا تُثير فضول أحد، لأني مُتفرّد.. ظللتُ أسردُ لكِ من الـ(أنا)؛ (أنا) تِلو (أنا) حتى أصبحتْ في التعدادِ مائتين من الـ(أنا) الكاذبة!

كنتُ أريدُ إخبارَكِ ألّا تُبحلقي بي هكذا فإنّي أتساقط كأوراقِ الخريف من أعلى شجراته تحملني رياحُ عاصفته كأنّما اندلعت زوبعةٌ بأعماقي أحدثت كارثة إنسانية والكثير من الضحايا.. اصطدام قوي بين غيوم لاتزال تمطر منذ خمسين دقيقة بطريقة جنونية وتصعق كل ما تجده أمامها.. السفينة بداخلي لم يعد لديها مرساة، أنا اللّاجئ إليكِ فاصنعي لي مخيماً... ها أنا أختبئ وراء هذا القلم كما يفعل طفلٌ عندما يخونُه بؤبؤ عينيه من أن يقول أحبكِ يا أمي، فيذهب ليكتبها ويطويها ويُلقيها تحت وسادتها، الممتع هنا أن الأم تبحث عن تلك

الرسالة بشغفٍ، فابحثي عني علّكِ تجدين نصفيّ التائهين بداخلكِ.. وتصدقي بي عليّ فإنما الأشياء تنمو بالصدقات عساي أنمو بكِ..

لم أمارس مهنة الإعلام في البحث وسرد وكتابة المقالات للواقع والأحداث كما فعلتُ معكِ، لقد كنتِ خبري العاجل وثورتي السياسية، أوضاعي الاقتصادية والنشرات الجوية.. حتى أنكِ تملكتِ شاشتي السينمائية، أفلام الكرتون، وحتى تلك الإعلانات المزعجة!

لا زلت عالقاً في الخمسين دقيقةً الماضية دون أدنى مقاومة مني، مُكبلُ القلب، استسلمت فاستعمريني وأعلني انتصارك، إن العدو ليس بالقوة التي تخيّلتموها، ولستم بحاجةٍ لكل ذلك التدبير.. اُعبري أرضي فالحدود حدودكِ، واقتلعي علمي وانصبي عَلَمكِ، رددي نشيدكِ لأحفظه أيتها المستوطنة بداخلي..

ماذا أفعل هنا؟! ما بالي والثمانية والعشرون حرفاً فقد استضافوني وقلمي بينهم فأصبحنا ثلاثين حرفاً جميعنا نكتبكِ وجمعينا العاشقون؟!

عزة؟! هذا هو اسمُكِ.. أما العين فرماح عينيكِ سكنها قناصٌ محترف يُصيب هدفه بسهولة.. لو شارَكَتْ عيناكِ كجنديٍّ في حربٍ عالميّةٍ لانتصرت دون ريب.. والزاي زينتكِ اللا مُصَنَّعَة، بل إنها مصنع زينة فتيات الجامعة ذاتها.. حرفُكِ الأخير هاء حيث انفرادك فأوصليني به واجعليه تاءً، ودعي الثلاثين حرفاً يكتبها **عزةُ عُمر**..

ماذا أكتب؟ أتسالين؟! أيثير هذا فضولكِ حقاً لمعرفة حقيقة هذه الكلمات أم أنهُ تحدٍّ لا جدوى منه سوى انتصار جرأتكِ أمام صديقاتكِ؟! أقف أمامكِ الآن وأخبركِ بغرورِ شرقيٍّ أن هذا الشأن لا يعنيكِ.. أرِيني كبرياء الشرقيات التي لطالما سمعتُ عنه، انتزعي الورق من على طاولتي وانظري إليّ بحدة.. إن اقتربت سأنتزع عينيكِ كما الورق.. أو لا داعي لكل هذا، انظري فقط مباشرةً إلى عينيّ، سأغرق بمفردي...

ماذا يكتب ذلك المغرور؟! لو تعلمين أنّي لم أعد أكتب، أصبحتُ بحاجةٍ إلى من يكتبني ويحكي لكِ عني لتجديني من بين ركام نقاط الثاء والشين، ومتاهة الهاء، وسِعَةِ الباء والتاء، وانحدار الياء، وضمات الميم والواو.. أسعفيني بجملةٍ مفيدةٍ لأتّزن!

مصابٌ بكِ.. هل من طبيب؟! هل من دواءٍ لدائي؟! أين السبيل؟! وأنا منذ خمسين دقيقة مصيري محتدم في استدارة عالمكِ؛ كلما وجدت الطريق أجد أنني لا زلتُ عالقاً في منحنيات استدارتكِ.. لقد بلغ طوافي سبعاً فهل لي الآن بطوافِ وداع؟!"

****

وهذا أيضاً منديلك، أتذكرينه؟! إنّه هنا في الصندوق، لم يمكث كثيراً فيه كما الرسالة فقد كان أبي يحمله دائماً بعيداً عن هذا الصندوق الذي لم ينجُ من القذائف التي أصابت القرية.. رائحتكِ لا تزال به، لم تستطع العطور تركه فهو لكِ، كيف بعد أن جعلتِ الجميع يحبكِ رحلتي؟! ألم تناسبكِ الدنيا؟ أم أن الألم اختارني فيكِ؟!

أُحبكَ في صمتي الوارفِ، وفي رغبةِ الهدبِ الخائفِ..
وبي يا مُلَوِّن عمري إليكَ حنين الكرومِ إلى القاطفِ..
حنينُ الشحارير عند الغروب إلى رحلة الموسم الهاتفِ..
ذُرى بالندى والبريق تُطل كنهرٍ من الوهجِ الصائفِ..
أُحبكَ هل بعد حُبي سؤال، وبعد جمالي غِوىً أو جمال..
أُحبكَ حتى يضلّ الغمام وينسى الربيع دروب التلال..
أُحبكَ حتى يملّ الصدى طواف الربى وعناق الجبال..
أقول أحبك موج حقول وجمع شذى يا مِطل الظلال..
وقلت إلى بيتك الساحرِ أجيئ مع القمر الساهر..
فزينتُ بيتي وطال انتظاري، وغنيت حتى بكى خاطري..
وحين سكبتُ النشيد الأخير، وفرفطت عقد الشذى العاطرِ،
أتيتَ فيا حيرتي ما أقول، وكيف أُلاقيكَ يا زائري؟!

قصّ لي أبي الكثير عن حبكما ولقائكما الأول حيث أنهُ كانَ في جامعة الأزهر بمصر، وتخصصكما بمجال الإعلام، وكيف أنه استطاع أن يُقنع أهله بالزواج منكِ، ولم يخطر بباله الهرب.. أخبرني أنهُ وأنتِ تُقدسان الحب كأنّهُ ديانة سماوية محفوظة من التحريف والهراء الكاذب.. أُصيب أبي بداء حُبّكِ؛ هذا ما بدا عليه، سمعتُ في فتراتٍ كثيرة قريباته يتهامسن بمجنون (عزّة)، لم يكُن أبي قيساً ليشعِر أو يهيم ويدندن لكِ ثم تنتحران تاركان الحُبَّ خلفكما. لقد طلبكِ من الله في كلّ ليلةٍ ومع كل صلاة، بكل ود وحب!

مرض أبي كثيراً حتى بات إنقاذهُ مستحيلاً، عِندها فقط خضع عُنفوان جدي وكبرياء جدتي أمام حُبّ ابنهما الوحيد، خوفاً من فقدانِه، متجاهلان حديث أهل القرية وذمومهم.. كم هو محظوظٌ التاريخ الذي أشاع قلبكما! ١/ أغسطس/ ١٩٧٢م، وسفركما إلى شهر العسل في بغداد حيث اعتبر أبي العراق حبّه الثاني بعدكِ.. بعد عودتكما وسكنكما المنفرد بكما، عندما ترك أبي تلك الملحوظة على باب المنزل التي تقول (بدون طرق الباب! نحن بأفضل حال، دعوني أحيا مع حبّي، وشكراً لزيارتكم).. ضحكت كثيراً حين أخبرني بفعلته هذه وأقسمت أني سأرثها عنه..

****

(٥)

المرة الخامسة التي احتضنتُ فيها القلم لأكتب لكِ
تاهت نفسي هُناك، أمسكي بيديّ ودُليني..

****

- أمي.. انسي الأمر؛ لا أُريد الزواج بعد وفاة عزة، أما عهد سأتكفلُ برعايتها بمفردي، لا تقلقي كثيراً..
- لقد سحرتكَ تلك اليهودية حتى بعد وفاتها كأنما عقدت عهداً مع ساحرٍ أن يستمر سحره معك إلى الأبد..

أكملتْ بصوتٍ جهوريٍّ مفزع:

- أنا لا أستأذنُك يا عُمر! لقد طلبتُ لكَ ابنة شيخ القبيلة من أهلها وانتهى الأمر هذه المرة.. أمّا ابنة اليهودية ستذهب لخالتها لتنشأ بعيداً عن أطفالكَ المستقبليين، ولن أسمح لك بتجاوز أوامري هذه كما فعلت مسبقاً..

رمق إليها أبي بجفنيه المتعبين:

- لا أعلم متى ستنتهين من المشاكل، أنتِ تخترعينها على الدوام يا أمي.. عن إذنكِ!

خرج يحملني بين ذراعيه، وجهي قريبٌ من نبضاتِه المتسارعة، متوجهاً نحو منزل صديقه العم خالد..

- تعبتُ حقاً هذه المرة يا خالد، أمي تقتلني بكلامها، تردّد بأنه يجب إصلاح خطأ زواجي من عزة بالزواج مرة أخرى، لكن من ابنة شيخ قبيلتنا! اقطع لي جواز سفر إلى السعودية من فضلك، سأغتربُ وعهد..

الوضع لم يكن آمناً كفايةً للسفر، حينها بدا وكأن العالم الأسيوي مضطرب، ليس قليلاً وإنما كثيراً جداً.. صِراعاتٌ سياسية وعسكرية، غزو واحتلال، العيش للغني والموت يُكتبُ فقط

للفقير.. قُسِّمَتْ أرضُ الله إلى تقاسيم مُجعدة بخطوطٍ بارزة محددة بشكل واضح، كأن الزمان أضاف عليه أملاح البحر الميت لتهيج القارة بهذه الصورة! شيخوخة أصابت العرب، انقسامات غير مفهومة، البعض يُصفقُ للاتحاد السوفيتي (روسيا حالياً)، والآخر ينتظرُ عَظمته من الولايات الأمريكية ليلهث ويسيلُ لعابُهم المسعور، لم يُحِبنا أحد.. لا أحد!

****

بلغتُ سنّ الرابعة.. كان أبي يأخذني للمسجد لتعلم الدروس الدينية، وفي إحدى المرات أخبرتنا شيخة المسجد الملازم لمنزل جدي الذي يعلوا سطحه بمنارته الخضراء الطويلة كأنها ناطحة سحاب شاهقة في السماء، لا ليست كناطحة سحاب فقط، بل كانت تلامس السحاب فعلاً! مشبعةٌ بالزخارف من أعلاها، منسدلة الى أسفلها، حِيكت بعنايةٍ تماماً كأمٍّ تَحيك معطفاً لابنها.. نوافذها ذات نقوشٍ نصف دائرية من الجص أسماها جدي **قمريّة** حين كان ينادي عاملاً للاهتمام بالمسجد مؤكداً لمعان تلك القمريّات مع نوافذها، أبوابها كمداخل الجنة الثمانية التي قالت عنها جدتي.. أتعلمين يا أمي؟ كانت مطليّةً بزرقة السماء، إنه لوني المفضل! تعلمين أنه لوني المفضل أليس كذلك؟!

استيقظت من شرودي بالتأمل في تفاصيل المسجد لكلام الشيخة وهي تذكر محمداً صلّى الله عليه وسلم.. تعجبتُ لما تقول ثم أظهرتُ تَعجبي بسؤال:

- من هذا يا شيخة؟!

أخبرتني الكثير عنه.. أحببته جداً وأنا لم أرَه أبداً، يبدو رجلاً صالحاً، جَعلَتني أتشوق لرؤيتهِ دائماً، فكنت قبل أن أغفوا للنوم أكتبُ رسالةً موجهةً إليه – صلّ يا الله عليه وسلم – منتظرةً إجابته صباح اليوم التالي! لم أكُن أتلقى إجابةً كما اعتقدت، ولكن بشكلٍ غريبٍ كُنت أحبهُ كل يوم أكثر من قبلهِ.. أخبَرتني أنه – صلّى الله عليه وسلم – قال أن: (الإيمان يمان والحكمة يمانية)، وأيضا أننا: (أرقّ قلوباً وألين أفئدة).. الحروب لم تترك لنا من أولئك الذين أخبرنا عنهم صلّى الله عليه وسلم.

(٦)

أعلنت الأرض رحيلكِ حين استقبلت السماء روحكِ تمام السادسةِ صباحاً..
وفي ليلةٍ ما تفرّدتُ بحجر نردٍ قاذفةً به إلى الأعلى فسقطَ ليتّضحَ
أمامي الرقم ستة فأيقنت حينها أنه رقم الألم خاصّتي..

****

(أنا وأبي في بيت العم خالد)

أخبار من الراديو:

اليمن:

- يُعلن المجلس السياسي الأعلى للجمهورية اليمنية الشمالية عن استقالة الرئيس (عبدالرحمن الإرياني) تحت ضغوط قَبَلية مجهولة..
- استقرار يسكن الجمهورية اليمنة الجنوبية حيث أكدت مصادر عن انتقال عدد كبير من سكان المناطق الساحلية إلى القُرى، والبدء ببناء منازلِهم الخاصة من الطين واللَّبْن..

العراق:

- الحكومة العراقية تمنحُ الأكراد حكماً ذاتيًا محدوداً تنفيذاً لاتفاقية ١٩٧٠م، لكن الحُكم الديمقراطي الكردستاني يرفض ذلك..

فلسطين:

- جامعة الدول العربية تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني وتقبلها كعضوٍ في الجامعة.. وأيضاً تناقلت الأخبار أن (ياسر عرفات) يُصبح أول زعيم بدون دولة يُلقي كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة..

دهشةٌ تُعلو ملامح أبي.. تم الاعتراف بمنظمة **التحرير الفلسطينية**، هذا ما كانت عزّة تودّ سماعه.. رفع رأسه للسماء؛ لقد تحققت أمنيتك يا حلوتي، ثم لفَت ناظريه سائِلاً العم خالد، حامِلاً إياي نائمةً على راحةِ يديه:

- أتعتقد أن استقالة **الإرياني** ستخدم البلاد في الفترة القادمة؟!

- أتمنى ذلك حقًا..

ستتعجبين كثيراً.. كيف لي أن أعرف كل هذا منذ ساعتي الأولى هنا؟ هذا لأن أبي كان يقصّها عليّ قبل النوم.. أمي، كنتِ أجمل أميرة من بين الأميرات اللاتي تعرفت عليهن من خلال قصص الطبيب رحيم..

الحربُ حربٌ وإن سَكنتْ، فَجُلُّ سُكُونِها يتمثل بنومِ القذائف والرصاص وسُبات السماء.. وتبقى هناك حربٌ تغزو جدران منازل الشهداء، وأنينٌ لا يُسمع.. أطفالٌ يتامى، أمهات ثكالى، زوجاتٌ أرامل، شباب مبتورو الأطراف، مشوهو الأجساد، وندوب القلب والروح بالفقد، سَكنتْ الحربُ واندَلعتْ أُخرى فينا!

****

(عيد مولدي الأول)

بلغت العام وبدأت خطواتي الأولى تشدّ رحلها، لم أنطق **بابا**، فقد كنتِ أنتِ الأولى بقاموسي، ليس لأني فطنة كأنتِ، بل لأن أبي أضافها بأساسياتِ لُغَتي – ماما – فنطقتها حتى تبين لي بعدها أنكِ لستِ هنا، فمن سيجيبني إذاً؟! أكنتِ ترسلين لي إجابةً حين أناديك؟! أم كنتِ تكتفين بسماعها تاركةً تردد صداها في زواياي وأنحائي؟! تَكفّل العم خالد بحفلةٍ كانت تحويني، هو، وأبي.. تلا أبي الأذان الثاني لمسمعي منذ عام.. كانت حياةً لا تُصَدّق في مجتمعٍ لا تزال تستعمرهُ حياة الإمام يحيى حميد الدين – كما أذكر اسمه – بدأ أبي بتجهيزات

الغُربة من فيزةٍ ومؤونة سفر، وعزم الدخول بطريقةٍ قانونية لا تهدد حياتي أبداً.. كان بوسعهِ الهرب عبر الحدود ولكنه تراجع كثيراً أو على الأقل لم تكن إحدى خياراته، كلّ ما كان يهمه إبقائي بخير، رَاغِباً في الحفاظِ على آخرِ قطعةٍ من قلبكِ.

ندوبٌ لا ترحمْ.. شقوقٌ كثيرة..
جفافٌ ولسعات الشمس الواضحة على أبي..
جعل مني ملاكهُ الصغير متربعةً على عرشِ قلبه وحياته..

****

(٧)

ولدان، فتاتان، فتاة، وأنا، وأنت..
وحين تركتني بقيت: فتاة، وأنت، وخمسة رحلوا..
"أهذا هو العدد الذي كنتِ ترغبين به لتكوين عائلتكِ؟!"

****

علمت جدتي بسفر أبي من العمّ خالد حيث أنه أيضا لم يُحبِب فكرة سفره للغربة، حدث المتوقع من جدتي إنه ابنها الوحيد على أي حال.. بصوتٍ عالٍ وطرقات متتالية على الباب:

- عُمر.. عُمر.. اخرج من غرفتِكَ حالاً..

- خير يا أمي؟ ماذا حدث؟

همهمت باكية:

- تُريد الغُربة أليس كذلك؟! تُريد الهرب؟ لماذا تفعل هذا بي؟ أنا أمك، سيسألك الله عني..

- أمي.. أشعر وكأني أختنق، لم أُعد أتحمل مزيداً من الضغوط النفسية رجاءً..

جدتي بفقدان أمل من زواجهِ بابنة شيخ القبيلة:

- حسناً لن أغصبك على شيء، لكن لا تتركنا مرة أخرى!

- حقاً؟! وعهد؟

- سأهتم بِها يا عُمر.. سأهتم بِها.

- أعِدُكِ لن أتركِكِ.. على الأقل ليس هذه المرة يا أمي.

قبّل رأسها طالبا منها الرضا فأتى صوت جدي ضارباً الجدران وصولاً لمسمع أبي:

- عُمر.. تعال اسمع الأخبار؛ ستُفاجأ.

****

إذاعة صنعاء تقدم أخبار وأحداث هذا العام:

اليمن:

- صعود (إبراهيم الحمدي) رئيساً وذلك بعد استقالة الرئيس السابق (عبدالرحمن الإرياني) من الرئاسة.

العراق:

- إيران والعراق يوقعان معاهدة لإنهاء نزاعهما الحدودي لمنظمة البلدان المصدرة للنفط.

فلسطين:

- الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالتعاون مع جماعة ألمانية يسارية تختطف طائرة ركاب فرنسية كانت متوجهة من إسرائيل إلى فرنسا وتُغير مسارها إلى مطار (إنتيبي) في أوغندا، وقوات خاصة إسرائيلية تنجح في تحرير معظم الركاب وطاقم الطائرة وتَقتل المختطفين.

.

.

.

(الحمدي) يصعد رئيساً..

العراق بسلام غير معروف الأجل..

وضحايا مجدداً في فلسطين..

العالم لا يهدأ، وعشّاق الدماء خلف جدرانهم متنعمون..

ونحن لله ونحن له راجعون..

****

(٨)

بها ثمانيةٌ منكم.. أنتِ وعمر، خالد وعطر، رحيم وأنا، الوزير السرطان، وصديقة رانبير حيث لا أجدها بيننا!

****

وجهٌ بشوش يدخل غرفة المستشفى التي تمكثُ بها.. إنّه طبيبٌ طويل ذو قوامٍ ممشوقٍ وعضلاتٍ كممثلي هوليوود تماماً، أسمر البشرة، كثيف الشعر ومصفف بعناية إلى الوراء.. "إنه وسيم جداً، يمتلك ابتسامة تَملَأ وجهه، لا أتذكر أنها اختفت" هذا ما قالته عهد حين سألتُها ممازحةً: "ما رأيكِ بهذا الطبيب؟".. حكى لها الكثير من القصص ليلاً، فأعجبتها منهن قصة (عَلاء الدين وياسمين).. إنه الطبيب رحيم خان الذي لطالما أمسك بها كثيراً بينما تخط الرسائل لكِ، ليقطع مجرى كلماتها المتدفقة إليكِ:

- حان موعد العلاج صغيرتي..

تمتمت بنظرةٍ متعبة:

- حسناً..

يواري رحيم نظراتها المتعبة بقصةٍ من قصص الأميرات التي تحبها، ففي كل جلسةٍ للعلاج الكيميائي يقصّ عليها قصة، تخفيفاً لمعاناتها أثناء تلقيها العلاج..

- عهد.. أتعلمين ما هذا؟

- أراهُ كتاباً.

- هو كذلك، وبين دفتيه قصة علاء الدين والأميرة ياسمين ابنة السلطان.

- حقا؟! أميرة جديدة..

- نعم.. أتودين سماعها؟

- نعم أودّ ذلك، من فضلك أريدها كاملةً هذه المرة.

أجابها مبتسماً:

- لا تقلقي سأرويها لكِ بالكامل.
- حسناً إذاً فلتبدأ.
- كان يا مكان، كان هناك فتى اسمه **علاء الدين** من قريةٍ بسيطةٍ تبعد أميالاً قليلة عن مملكة السلطان الحاكم، لكن لم يكن له أهل فكان يعيش في أعلى جبل في قريته مع صديقه القرد (بينو)، كانت مملكة السلطان تبدو من أعلى ذلك الجبل كمنظرٍ من الخيال، كان يعمل علاء الدين في حمل البضاعة المستوردة التي كان يستوردها كبار التجار من الممالك المجاورة للقرية، وكان هناك فتاة تدعى **ياسمين** وهي ابنة السلطان الحاكم للمملكة القريبة من قرية علاء الدين، كانت تعيش في قصر المملكة هي وأبيها السلطان والوزير علي.. كانت ياسمين تحب أن تبدو فتاةً بسيطةً أكثر من أن تبدو ابنةَ السلطان فكانت كلّ صباح ترتدي ملابس عادية لا تزيد قيمتها عن ملابس الناس العاديين، وتخرج للتجول في المملكة والقرية المجاورة، لقد اعتادت نساء القرية مجيئها الدائم لكي تساعدهن وكان أكثر ما يجذبها في قرية علاء الدين هو الفخار المصنوع بعنايةٍ بالغة، أما علاء الدين فقد لاحظ وجودها في القرية لكنه لم يعرف من هي لأنها كانت تبدو غريبةً عن القرية، فهو يعرف شعاب وسكان القرية كافةً لذا كان يعرف أهل القرية من الزوار وغيرهم.. لقد أثارت فضوله لمعرفة سبب تواجدها فقط في الصباح إلى وقت الظهيرة ثم تختفي، لذا فقد قرر أن يتبعها ليرى إلى أين ستذهب ويعرف منزلها، لقد خُيِّلَ إليه أنها فتاة من القرية المجاورة تأتي للعمل لتساعد أهلها ثم تذهب ولكنه فوجئ حين رآها تدخل قصر السلطان الحاكم للمملكة التي ينظر إليها كل مساء من الجبل الذي يمكث فيه، فقد ظنها خادمة القصر، أعد الكثير من الأسئلة لها لليوم التالي..
- ماذا حدث بعدها؟ هل أخبرته أنها ياسمين ابنة السلطان الحاكم؟!

- لا لم تخبره.. تبعها في اليوم التالي أيضا ليسألها ماذا تفعل ومن هي في ذلك القصر لكنه لم يتجرأ أن يسألها خوفاً من أن يقع في المشاكل، لكنه تابع تتبعهُ لها لفترةٍ إلى أن سمع والدها السلطان الحاكم يسألها: "أين كنتِ يا ياسمين؟ لقد انتظرتك طويلاً هذا اليوم"

فسألته: "لِـمَ؟ ماذا حدث في القصر يا أبي؟"..

"لم يحدث شيء، ولكنّ خطبتك من الوزير علي ستكون الشهر القادم؛ أنسيتِ هذا؟!"..

نظرت إلى والدها نظرة البغض، إنها لا تريد ذلك الوزير الغبي أن يكون زوجاً لها..

- يا للمسكين علاء الدين، لابد من أنه وقع في حبها حين كان يتبعها وتثير فضوله دائما..
- نعم.. لقد أحبّها جداً أيضاً.. حزن علاء الدين لما سمعه من حديث السلطان وابنته، فقرر بعدها أن لا يعمل مرةً أخرى في ذلك السوق كي لا يراها، فعاد إلى بيته أعلى الجبل يجر أذيال الخيبة في حبه الأول وكيف له أن يصل إلى قلب ابنة السلطان الحاكم وهو فتىً فقير لا يملكُ حتى منزلاً يُؤويه.. لم ينم تلك الليلة إلى أن أشرقت الشمس، أخذ صديقه القرد وذهب إلى النهر الذي اعتاد أن يذهب إليه دوماً حين يشعر بالخيبة، وبينما هو يغسل وجهه وجد شيئاً غريباً لم يسبق أن رآهُ من قبل، لقد كان مصباحاً ذهبيّ اللون قد غطى الغبار لمعته، أخذه علاء الدين وبدأ بتنظيفه بطرف قميصه، وبينما هو ينظف ذلك المصباح إذ خرج منه ماردٌ أزرق اللون قائلاً: "شبيك لبيك المارد بين يديك، أطلب وتمنى، ولك ثلاث أمنيات"..
- مارد أزرق؟! ماذا حدث؟ هل تمنى أن يكون زوجَ الأميرة ياسمين، وأن يصبح غنياً، وأن يموت الوزير، أليس كذلك؟!
- لم تكن أيٌّ منها ضمنَ أمنياته، فقد ذُهِلَ في بادئ الأمر، سأل المارد: "من أنت؟"

أجاب عليه: "أنا المارد الأزرق ساكن هذا المصباح، ما إن تمسحه ثلاثاً حتى أظهر لك كي أحقق ثلاثاً من أمنياتك".

سأله علاء الدين: "وحتى إن كانت أمنيات صعبة التحقيق؟!"،

أجابه المارد: "نعم، وإن كانت أمنيات صعبة"..

"أتمنى أن أرتدي ملابس الأمير"

قال المارد له: "شبيك لبيك المارد بين يديك، وألبسه ملابس كملابس الأمير تماماً".

- واو! وماذا حدث بعد ذلك؟

- اندهش علاء الدين لما حدث، لقد تحققت أمنية بسيطة، ثم قال له:

"الآن أنا أمتلك ثلاث أمنيات". فأخبره المارد أنه لم يتبقى له سوى أمنيتين فقط فقد استخدم واحدةً للتو، قال علاء الدين: "لكني كنت أجرب مدى مصداقيتك" لكن المارد رفض هذا وأكد أن علاء الدين لم يعد يمتلك سوى أمنيتين فقط، تمتم علاء: "حسناً، لو كنت مكاني ماذا كنت ستتمنى؟!"

أجابه المارد: "سأتمنى الحرية.. لكن لماذا تسأل؟!"

قال علاء: "لأني محتار ماذا أتمنى، ولماذا تختار الحرية بحد ذاتها؟!"

أجابه: "لأن الحرية كنز لا يفنى؛ فأنا عبد ليس إلا، ماذا يهمك من هذا؟ ماهي أمنيتاك المتبقيتان؟"

أجابه: "أعدك أنك ستكون حراً وهذه هي أمنيتي ولكن ليس الآن"..

"لماذا ستفعل هذا؟!"..

"لأني أريد أن أراك حراً أيها المارد"،

"حسناً سأذهب إلى المصباح، وفي حال أردت أن أحقق لك إحدى أمنيتيك امسح المصباح ثلاثاً"، ثم عاد للمصباح..

- أعلاء الدين سيتمنى ذلك فعلاً؟! أن يصبح ذلك المارد حراً؟

- ذهب علاء الدين إلى قصر السلطان ليعترف للأميرة ياسمين عن حبه لها، تسلّق شجرات الساحة من أمام شرفة الأميرة إلى داخل غرفتها، وما إن رأته حتى بدأت بالصراخ، أغلق علاء الدين فمها وقال: "لا تخافي لن أضرك أبداً"..

"من أنت؟!"..

"أنا علاء الدين"..

"لحظة! لقد رأيتك من قبل تعمل حمال بضاعة التجار في القرية المجاورة؛ أليس كذلك؟!"..

"نعم.. أنا هو"..

"ماذا تريد؟!"..

"أعلم أنه لا يليق بي أن أخبرك بهذا لكني أحبك"،

"يا إلهي! ما أزال عالقةً بشباك الوزير علي لتأتي أنت؟!"،

"لقد سمعتك تحدثين أباك السلطان أنك لا تريدين الزواج من الوزير علي"،

"ماذا؟! أتتجسس على القصر؟"..

"أنا لا أتجسس على أحد، أنا أحبكِ فقط"..

"وماذا تريد؟"..

"أريدكِ أن تحبيني"

"حسنا افعل ما بوسعك لأحبك يا علاء الدين، الآن اذهب من هنا"،

"سأفعل ما بوسعي، أتقبلين أن آخذك بجولةٍ حول المملكة وأريك شيئاً من خيال؟!"..

"لا أعلم، يجب علي ألّا أوافق على طلبك هذا لكني سأفعل"،

"حسناً إذاً، سأنتظرك في السوق عند شروق شمس الغد"،

"اتفقنا إذاً.. تصبح على خير"..

- طبيب رحيم، كيف لأميرة أن تقابل فتى عادي؟! سيغضب السلطان الحاكم، وماذا سيفعل الوزير حينها وهو يعشق الأميرة ياسمين؟!

- عند شروق الشمس في اليوم التالي كانت الأميرة ياسمين تنتظر علاء الدين في السوق، أتى علاء الدين وصديقه (بينو)، أخذ ياسمين في جولة إلى أزقة المملكة التي لا يعرفها سِواه وبعض الأشخاص الحراس للمملكة، إلى أن حل الغروب في سماء المملكة أخذها

إلى منزله أعلى الجبل لترى الغروب من هذا المكان الذي يجعلُ المملكة تبدو وكأنّها تغرق، لقد ذُهلت كثيراً وأعجبها ما رأت، شكرت علاء الدين على هذه الجولة الممتعة، فأوصلها علاء الدين إلى القصر، رأى الوزير علاء الدين والأميرة ياسمين فجن جنونه، لم يخبر السلطان ولا الأميرة ما رأى لكنه ذهب إلى علاء الدين يهدده بالابتعاد عن الأميرة ما لم سيحدث له ما لا يتوقع، لم يستمع علاء الدين إلى تهديد الوزير واستمر في الخروج مع الأميرة، إلى أن استخدم الوزير الصولجان الخاص به فسجن علاء الدين وصديقه (بينو) وأيضاً المصباح السحري في كهفٍ حالكٍ في الظلام، مكث فيه علاء الدين وهو لا يعلم ماذا يفعل، أحس أنه مكبل الأيدي وعاجز تماماً، مسح المصباح فخرج المارد الأزرق "شبيك لبيك المارد بين يديك...، أين أنا؟ ما هذا المكان؟!".. أخبر علاء الدين المارد بما حصل معه وكيف سجنه ذلك الوزير الشرير في هذا الكهف، قال له المارد: "يتبقى لك أمنيتان، تمنَّ"، تنهد علاء الدين بأسى: "أتمنى أن نخرج من هنا لأنقذ ياسمين من توحش الوزير"، ردّ المارد: "شبّيك لبيك المارد بين يديك افتح أيُّها الكهف"، ففتح الكهف ودخل الضوء إلى الكهف، ولكنه فُتح من الأعلى، لفت علاء الدين نظره إلى المارد: "كيف سأصعد؟"، رأى المارد هناك بساط يعلوه الغبار ثم ألقى عليه بتعويذة إلى أن تحرك البساط وحملهم جميعاً إلى الأعلى، غمرت السعادة علاء الدين وبينو، بعدها قال المارد: "سأذهب إلى المصباح وإن أردت أمنيتك الأخيرة فامسحه ثلاثاً"، أوقفه علاء الدين ثم قال: "سأتمناها الآن"، رد المارد: "تمنَّ"، "أتمنى أن تكون حراً وتصبح صديقي"، اعتلت الدهشة ملامح المارد وسعد جداً، انكسر المصباح فأصبح المارد صديقاً لعلاء الدين، تذكر المارد الوزير الشرير ثم ذهب لينقذ الأميرة والسلطان، وصلوا إلى القصر ووجدوا أن الوزير رمى السلطان في أحد سجون القصر واختطف ياسمين، أنقذ علاء الدين الأميرة وأباها وقتل الوزير الشرير ثم تزوج علاء الدين من الأميرة وأصبح أميراً للمملكة..

- الخير دائماً ينتصر.. هكذا قال أبي.

- أحسنتِ صغيرتي.

تمتمت بتعب بعد تلك الجلسة:

- كم أتمنى لو أنني أمتلك بساط علاء الدين السحري لأصعد إلى أمي.

رحيم ممسكاً بيدها، مواسياً وحدة شعورها:

- عهد.. سأكون بجانبكِ دوماً.

- أتعلم؟ هناك من يخاف على قلبي كأنت، وهناك من يضربه بشدة كالوزير..

قبّلها على جبينها وغطّاها متمنياً لها أحلاماً سعيدة ..

****

(٩)

تسعُ كلماتٍ منهُ لم تهاجرني يوماً:
"سأبقى بجانبك دوماً.. أعدك يا عهد..
أنتِ قويةٌ وإن رحلت."
كذبَ في خمسٍ، والباقياتُ تعزّيني..

****

(١٩٧٦م، مشاركة المنتخب اليمني الجنوبي لكرة القدم في كأس آسيا)

في غرفة أبي:

كنتُ نائمةً على السريرِ بينما يجلس أبي والعم خالد على الأرض ويخططان لعملِ مشروعٍ ما..

- خالد.. ستذهب معي، صحيح؟!

يجيب العم خالد وهو يقشر بعضاً من حبات الفستق:

- أين؟!

بنظرة مستفزة من أبي لبرود العم خالد:

- هل نسيتَ مباراة منتخب جنوب اليمن لكرة القدم في كأس آسيا ضد العراق؟ وبعدها ضد إيران؟

قفز العم خالد من مكانه وبصوتٍ عالٍ قال:

- اووه لقد نسيت فعلاً ! متى سنذهب؟

- بعد ثلاثة أيام.. تجهّز بسرعة، أمامنا سفر طويل.. وكما تعرف، هناك مشاكل في الحدود اليمنية الشمالية مع اليمنية الجنوبية لذا لن يكون السفر سهلاً إلى خارج البلاد..

سافر أبي والعم خالد لمشاهدة المباراة حيث أنهما تغيّبا عن اليمن ما يقارب الشهرين، وعند عودتهما كانت نتائج المباراة مخيّبةً لهما وللقرية أيضاً، فقد خسر المنتخب اليمني أمام العراق بواحدٍ مقابل لا شيء، وأمام إيران بثمانيةٍ مقابل لا شيء أيضاً!

أما أنا، فقد بقيت برعاية جدتي؛ لم تكن سيئةً معي، لقد اعتنت بي جيداً إلى أن عاد أبي من رحلتِه.

الفقد يعلمنا الكثير، ولو كنتِ معي لكنتُ أفضل..

****

سأنام قليلاً علّي ألتقي بالكلماتِ الخمسِ التي كذب فيهن أبي "سأبقى بجانبكِ دوماً، أعدكِ يا عهد.." وكما لا تعلمين؛ العلاج الكيميائي يُشعرني بعدمِ الرغبة في فتحِ عينيّ مجدداً، مَحجرا جفنيّ ثقيلان يكادان يسقطان من موقعِهما، يدي مرتعشة، ودائماً تُسقِط القلم مني، جسدي مُنهك كما لو أن دبابة حدرت مسارها لتمر فوق عظامي، ألمٌ شديدٌ يقتُلُ نصف رأسي، لقد تعبتُ من كل هذا!

سأُصَبِّحُ على قلمي الذي يشتاق إليّ باكياً كي يكملَ رسالتي لكِ حبيبتي، يرتشف قهوته بانتظار أن أصحو، نظراته المتتالية على الشمس الباهتةِ كأنّها ستغرب لا تشرق، السحاب مجتمع حول زنزانتي يقيم مراسيم عزاء لخصلات شعري المتساقط.. وحده السحاب يعلم ما يعنيه سقوط شيء احتويته طويلاً، كما أن صوت فيروز بات يُزعجني.. تصبحين على حُبّي..

****

(١٠)

وجدت رسالتكِ العاشرة تقول:
"أما عن تلك المرساة التي تساند واحداً لتحفظ بداخلها تسعةً آخرين
فقد سقطت سهوا، وأمست تسهرني..."
تسع ليالٍ والعاشرة سهرتِ بها لكتابة الرسالة الحادي عشرة..
أهذا ما قصدته؟!

****

صباح الخير أمي.. كيف هو يومكِ هناك في السماء؟ أعلم أنه أفضل من هنا، لا بأس؛ أشعر وكأني أقترب منكِ هذه الفترة. تأخرتُ عنكِ هذا الصباح، أليس كذلك؟! أعتذر يا جنتي.. أعلم أنه كان يجب أن أكتب لكِ قبل يومين لكن شيئاً ما جفَّ بداخلي، لم أشعر بخصوبة الكلمات، حاولت جاهدةً أن أرسمها لكِ في اليومين السابقين فلم أستطع، وكلّما تجمعت كلمة وزاحمت حروفها لأنقشها تبعثرت من يدي كعقد لؤلؤ.. الكلمة الألف المستوحاة من الأولى لم تسعفني.. أقلمي بدأ يتركني أيضاً؟! أم أن الورقة تريدُ احتجاز سطورها لكلماتٍ أخرى؟ لا بأس؛ أنا بخير.. لابد أن أكون بخير لأجلكِ..

أتذكرين ماما عطر جارتكِ في منزلكِ القديم عند أبويكِ؟ بلى هي؛ لم تخطئي.. إنها خطيبة العم خالد بذاتها، تزوجت من العم خالد وذهبنا لعرسهما؛ لقد بدت وكأنها أميرة من أميرات قصص الطبيب رحيم خان.. سأكون مثلها يوماً ما بعد أن أُشفى وينمو شعري بخصلاته الشقراء كي أُسَرِّحَه، وتزهر حواجبي كحقل ورد الزمرد مكونةً إطاراً أعلى جفنيّ، رموشي ستنمو جميعها عدا هذه العالقة؛ ستسقط ولن أحزن لفقدانها أبداً، أرتدي ذلك الفستان الكبير، حاملةً ورداً أزرقاً، على الأرجح سأُشبهكِ..

أوصى أبي عمتي نور بتجهيزي للذهاب معهم لحفل الزفاف، مؤكداً أنه ينبغي أن أكون أنيقةً كأنتِ.

- أين عهد؟
- إنها في الأسفل مع أمي..
- حسناً.. نور هلّا اعتنيتِ بها؟ فستانها الجديد موجود في الخزانة.
- لا تقلق.. الغالية عهد ستكون أجمل من العروس.
- سأذهب لأساعد خالد في تجهيزاته الخاصة..
- الله معك يا أخي.

أُقيم حفل زفافٍ يمنيٍّ بكلِّ عاداته وتقاليده حيث امتد لشهرٍ بأكمله؛ ابتدأ بعددٍ من الجلسات بين الأهلِ وانتظار الجميع من المدعوّين ليأتوا من قُراهُم المختلفة مُلبّينَ دعوة الزفاف، ثم بدأت مراسيم الوداع المتمثلة بيوم الحنّاء، يليه اليوم الأخضر، فاليوم الأبيض، خاتمةً بليلة ذهاب ماما عطر لبيت العم خالد.

بعد عودة الجميع من حفل الزفاف وإيصال العروس لمنزلها الجديد الذي سبقه سرب السيارات تلك الليلة؛ عاد أبي وكنتُ بحضنهِ نائمةً، وجدتي وعمتاي للمنزل، حيث كان جدي ينتظرُ العشاء، أعدّته جدتي بينما أخذني أبي للغرفة لأنام وعاد مسرعاً حاملاً معه الراديو لسماع آخر الأخبار:

أهلاً جميعاً في إذاعة صنعاء..

اليمن:

- في فبراير الماضي تقارب الرئيس (الحمدي) مع (النظام الاشتراكي) في جنوب اليمن في خطوات السير نحو الوحدة من خلال عقد اتفاقيةٍ نصّت على البحث والمتابعة لكافة القضايا الحدودية التي تهم الشعب اليمني الواحد حيث أنه أيضاً في أكتوبر..
- اغتيال الرئيس (إبراهيم الحمدي) تثير الفوضى في أرجاء المنطقة، والأوضاع غير مستقرة.. ألحقه بذلك أنباء عن صعود رئيس جديد يُسمّى بـ (أحمد الغشمي)، وتستمر النزاعات..

فلسطين:

- حزب **ليكود اليميني الإسرائيلي** يُحقق فوزاً مفاجئاً في الانتخابات العامة ويشجع النشاط الاستيطاني في (الضفة الغربية) و(قطاع غزة)..

همس جدي لأبي بخيبةٍ لما تلقى سمعه الضعيف الأنباء:

- هل هذا صحيح كل ما يحدث في اليمن وتزايد الأوضاع بشاعةً في فلسطين؟! ماذا يحدث؟ أخبرني!

لم يُجِب أبي على أيّة أسئلة، اكتفى فقط برفع كتفيه مشيراً أنه لا يعلم ماذا يحدث.. كيف للأوضاع أن تسير بهذا السوء؟! كلما أتاهم الفرج ضاقت أكثر! كأنّ (لعنة الإمام) مازالت تجوب أجواء المدينة بطريقةٍ غير واضحة، جميعهم يسحبون الكرسي الذهبي للرئاسة من تحت جميعهم، يغيرون رئيساً ويغتالون آخر، بلدٌ أجنبية تغتصب أرضاً، تضع قوانينها وتعاقب مُخالفيها، العالم يقف مُبجِّلاً مكتوف الأيدي، لا يرى، ولا يسمع؛ كأنهم أمام لعبة الطاولة يرمون عليها أحجار النرد فيرفعون من يشاؤون ويرمون لسفوح الجبال من يشاؤون..! والحقيقة أننا لا نعلم من هُم أصحاب هذه الأوراق التي تلعب بالقارة الأسيوية.. أمر يدعو الى الجنون! دائماً ما يذكّرني هذا بالوزير السرطان؛ هو لا يظهر ليصارع مرضاه وجهاً لوجه، لكنه يختبئ بين عروقهم، يدمرهم بطريقةٍ شيطانيةٍ مستمتعاً بالتخفي..

الحقراء يملؤون المكان، والعالم يبدو مخيفاً.. ذهبوا جميعاً للنوم حاملين في طياتهم الخيبات المتواصلة لما أصاب الأراضي المقدسة؛ القدس وأرض الجنتين..

الانتماء للوطن ليس بكومةِ تُرابِهِ المكونة لك.. تستطيعُ القول عن أي مكان تزهر فيه أنه (وطنك)..!

****

(١١)

في المنتصفِ بين الوزير والعلاج الكيميائي؛ يتنازعان أيُّهُما سيأخذني!

****

سافر العم خالد وخالة عطر لقضاء شهر العسل.. وعند عودتهما دعوا الأهل والأصدقاء والجيران لتناول الغداء، كان يوماً جميلاً جداً، وجماله يكمن في قضاء الليل بمنزل العم خالد؛ أفضل قرار أتخذه أبي.. ماما عِطر حنونةٌ جداً لدرجةِ أنها قالت لي بأن أنعتها بـ (ماما)، لكنّي كنتُ أعلمُ أنَّ هناك نهايةٌ لكلِّ بداية، وها أنا وحيدة منذُ ولادتي أصارع الحياة.. وخلال ثلاثة أعوامٍ جعلت من نفسي كتاباً ليكتُبَني قلم..!

لم يكن هناك صباحٌ في اليوم التالي؛ فقد ظلّت تلك الليلة قُرابة نصف عمري تنشر ظلامها وتتشاددنا كذئابٍ في غابة استوائية تنهشُ لحم الجميع وتُقلّم أنيابها الحادة بالعظامِ.. سمعتُ مرّةً بمقولةِ (إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب)، وكيف ينمو شعب (مستذئب) راضٍ عن كونه بين القطيع يأكل الحشيش ولا يَأبه لنصيبه من اللحم.. لقد نُهِشنا كُلّياً..

- اخرجوا من القرية!!

هذا ذلك هتاف جدي الأخير العالق تحت رُكام المنزل، جدتي التي لا أعلم أين دفنها الحُطام، وعمتيَّ كذلك.. سُحِقَت أُسرةٌ بأكملها واختفى الجميع.. أتذكر صراخ أبي المتفجر من حنجرته، اختطفني بحضنه مهرولاً خارج القرية ذاهباً حيثُ لا يدري، وصوت جدي الأخير يتردد بأذنيه "اخرجوا من القرية!! اخرجوا من القرية".. التهمت الدموع وجه أبي وذلك هو أول يومٍ أراه يبكي فيه، يلتقط عينيه من السقوط؛ لكن لا فائدة فقد أغرقتني أمطارها..

تلك الليلة ضربت الدبابات القرية بطريقةٍ موحشةٍ جداً، قذائف في كل مكان، صرخات متتالية، أجساد متساقطة دامية.. دُمِّرَت القرية تماماً؛ من عاش هاجر بعيداً، ومن لم يستطع الهجرة تشرّد.. وما للحرب شيء تفعله سوى خلق الرعب والتشرد، والمزيد من الأيتام..

بقيتُ وأبي ما يُقارب ثلاثَ ليالٍ نجوبُ الشوارع برعبٍ تامٍّ وبتشردٍ مُتقن.. بعدها عاد أبي للحُطام المتراكم باحثاً عن شيءٍ من أهله فلم يجد.. كلّ ما كان هناك خراب ودمار ولا شيء سوى هذا.. أُخِذَت جثثهم بطريقةٍ وحشيةٍ وأُخفيت.. لا أعرف حتى الآن من هؤلاء المتنمرين.. أزاح الكثير من الحجارة على أملِ إيجاد ذاك الصندوق الذي يخبئ فيه حاجاته.. وبعد قرابة الصخرة المائة اليائسة؛ وجده! لم يَكُن بخير، ولم يقلّ ضرراً عن بقية ما سكن المنزل.. أخذه، فتحه ووجد فيه ما وجد من نقود وجواز سفر، ثم رحلنا إلى مصر..

هل أسميها رحلة؟! أم هروب؟ أم نزوح؟ أو هجرةً للبحثِ عن مكانٍ صالحٍ للعيش؟!

****

(١٢)

واحد مقابل اثنين، هذا كان خيار الموت الوحيد؛ فاختاركِ تاركاً إياي وأبي..

****

(حدث ما حدث، بعد أحداث ١٩٧٨م)

اليمن الشمالي:

- مقتل (الغشمي) في مؤامرةٍ غير واضحة الأبعاد بتفجير حقيبة مفخخة أوصلها له مبعوث رئيس جنوب اليمن (سالم ربيع علي) ثم أتبعه سُقوط (سالم) قتيلاً على الرغم من تهديده بالانتقام ممن قتل (الغشمي).

اليمن الجنوبي:

- انشقاقات خطيرة في الجيش داخل الحزب الحاكم في عدن بالانقلاب على الرئيس (سالم ربيع علي).

فلسطين:

- هجومٌ شنّهُ مسلحون فلسطينيون يُسفِر عن مقتل ٣٨ إسرائيلي على أحد الطرق الساحلية في إسرائيل. إسرائيل تشن أول تعرض كبير لها في الجنوب اللبناني وتُجبر منظمة التحرير الفلسطينية وغيرها من الفصائل الفلسطينية على مغادرة المنطقة.
- إسرائيل تتعهد بتوسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة الذي نصّت عليه اتفاقات (كامب ديفيد) للسلامة بينها وبين مصر.

إيران:

- سقوط حكم (الشاه) وتحوّلها من ملكية إلى جمهورية، الأمر الذي أثار الرعب في دول الخليج العربي.

قصّتْ لي جدتي:

عندما تَلقى (الغشمي) الحقيبة من مبعوث رئيس جنوب اليمن حرص على فتحها بمفرده لظنِّهِ أنها شيء ثمين لا يحق لأحد أن يعرف ماهيته، أحكم إغلاق الباب ثم توجه ناحيتها، فتحها وفي المقابل لفظ آخر أنفاس روحه عن العالم، ثم اختفت أشلاؤه جرّاء الانفجار.. ظهر آنذاك مثلٌ شعبيٌّ ما زال الناس يتغنون به ويتداولونه إلى الآن (الفضول قتل الغشمي)؛ يُطلق على من لم يستطع التحكم بفضوله.. يا إلهي كم هذا مُضحكٌ ومُبكي! وتلك الانشقاقات في الجيش الجنوبي أسفرت عن مقتل رئيسهم (سالم)، فلسطين مازالت تُقاوم الاحتلال - يا أمي - وإسرائيل تُمارس وحشيتها مجدداً على الأرضِ المقدسة بالتوسع دون أدنى مقاومة من العربِ كالعادة؛ النوم يقتلهم، بينما استوطن الخليج قلقٌ منذ تحولت إيران من الحكم الملكي إلى الجمهوري..

كُنتُ خائفةً جداً من تلك الأصوات وذاك اللون الأحمر المُثير للاشمئزاز، أرتجِفُ وحيدةً.. أتعلمين؟ علّمني أبي أن أتلوَ هذه الآيات عندما أشعر بالخوف؛ كان يقول: "أغمضي عينيكِ.. تخيّلي كلّ ما تنظري إليه سماء زرقاء، اخلقي وجه أمك من العدم، إنها تبتسم أليس كذلك؟! هي بجانحين أبيضيْ اللون.. أخبريها بكل ما تشعرين به، قولي لها أن الجنة تنتظرني وسوف آتي إليكِ مع أبي يوماً ما، لا تذهبي بعيداً، قفي على بابٍ من أبوابها فنحنُ قادمان".

ثم يخبرني أن أقرأ المعوذات:

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل هو الله أحد (١) اللهُ الصمد (٢) لم يَلِد ولم يُولد (٣) ولم يَكُن له كفواً أحد (٤)﴾

****

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل أعوذُ بربِّ النّاس (١)مَلكِ النّاس (٢) إلهِ النّاس (٣) من شرّ الوسواس الخنّاس (٤)
الذي يوسوس في صدورِ النّاس (٥) من الجِنَّةِ والنّاس (٦)﴾

****

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل أعوذ برب الفلق (١) من شر ما خلق (٢) ومن شر غاسقٍ إذا وقب (٣)
ومن شر النفاثات في العقد (٤) ومن شر حاسد إذا حسد (٥)﴾

****

آية الكرسي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿اللهُ لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي
يشفعُ عنده إلا بإذنه يعلمُ ما بين أيديهم وما خَلفَهُم ولا يحيطون بشيءٍ من علمهِ إلا بِما شاء وَسِع
كُرسِيهُ السماوات والأرض ولا يئوده حِفظهما وهو العلي العظيم﴾

****

أقرؤها ثلاثاً وأختمها بـ(صدق الله العظيم).. لقد صدق الكريم في عُلاه بكرمه ومنّه علينا واللهم جنتك.. وأتمتم مستغفرةً (أستغفر الله العظيم وأتوب إليه) وما إن أصل إلى المائة حتى أغفو نائمةً بحضن أبي مع تلك الدموع المنزلقة على خدي.. لا أعلم إن كُنتِ قد حفظتِ آيات ديننا، لا تقلقي لقد تعمدتُ كتابتها لكِ..

إن كان هذا هو ديني الحنيف، فما هي ديانة هؤلاء المستذئبون عُشاق الدماء؟! ماذا يصلون؟ وماذا يتلون؟ من هو ربهم؟ عبدة البارود، مُقدسيّ السلاح وآكلي اللحوم البشرية!

****

بعدها بعام:

- أعلنت إيران عن قيام الجمهورية الإسلامية على أراضيها؛ حيث أن الثورة الإيرانية أثارت الرعب في منطقة الخليج العربي من حيث بداية الجدل بين السنة والشيعة على وجه العموم وبين النظام الجمهوري والملكي على وجه الخصوص.
- في نفس العام: تولّي (صدام حسين) رئاسة العراق.
- حربٌ في الحدود الشمالية الجنوبية اليمنية، شمالُ اليمن مع الماركسيين في الجنوب..

.

.

الحروب عادات وتقاليد، هذا ما أثبتته البشرية بأسرها..

****

(١٣)

ثلاثة عشر عام.. ألا تكفي لتعودي؟!

****

(١٩٨٠م، القاهرة – مصر)

سافرنا مصر بعد دمار القرية بأسبوع.. لا أهل، لا أصدقاء، ولا أحد؛ فقط أبي وأنا.. وأصدقاءه الذين درس معهم في جامعة الأزهر لم يجد أحداً منهم، العم خالد أيضاً لا نعلم أين سماءه من أرضه إذ لم نره منذ الكارثة التي أصابت القرية.. عثر أبي على شقةٍ صغيرةٍ للمكوث فيها، استمر لعامٍ بأكمله يبحث عن عمل، يأخذني معه لكلِّ مكانٍ يذهب إليه، كان يحملكِ بي، يدندن أغانيكِ المفضلة، ويحكي كم بدأتُ أقتبس ملامحكِ بحذافيرها..

بلغتُ السابعة من عمري، أصبحتُ في الصف الأول، سأذهب للمدرسة، سأكتب، سأقرأ، أحببت مدرستي جداً يا أمي..

- بابا.. هيا سأتأخر عن المدرسة.
- الشمس لم تشرق بعد، دعيني أنام قليلاً..
- إن لم تنهض حالاً من فراشك سأذهب بمفردي..
- إذاً اذهبي لتفتحي بوابة المدرسة واحتسي الشاي مع العم (مُرسي)..
- حسناً سأذهب!

لستُ أدركُ حجمَ الثقةِ لدى أبي؛ يعلم أني إن ذهبت بمفردي سأتوه.. يخرج فيجدني جالسةً قرب باب المنزل أنتظرهُ، يستفزني كثيراً ويخرج متظاهراً عدم رويتي:

- عهد! عهد! أين أنتِ؟!

ينظر إلى الباب فيجدني أنتظرهُ، يأتي ليحملني ويقول: "أمسكتُ بكِ" كما لو أني كُنت ألعب الغميضة معه.. يقوم بإيصالي إلى المدرسة.. حسناً لقد كان محقاً؛ لا يزال الوقت باكراً في كلّ مرة، يتركني عند العم **مُرسي** ويذهب إلى عمله..

- ها أخبريني؛ تأخرتِ عن المدرسة أم أن اليوم إجازة يا عهد؟!

- أتعلم؟ لقد كنتَ محقاً؛ لا يزال الوقت مبكراً، ولكن الحق على الشمس لِـمَ تشرق من نافذتي أولاً؟! لقد كانت في منزل جدي تتأخر..

نظر أبي إليّ بابتسامة من طرف ثغره:

- طفلةٌ مجنونة!

****

(١٤)

كانت رسالتكِ الرابعة عشر له بداية حملكِ:
"أشعر وكأني سأعتنق الإسلام لأجل عهد"
دعيني أردّ لكِ جواباً..

****

(يومي الأول في المدرسة)

بعد أن أوصلني أبي إلى المدرسة أصرّ أن يدخل معي كوني لأول مرة أزور المكان.. ذهبنا للصف، قعدتُ على الكرسي في الصف الأول، كان الصف مليئاً بالأطفال من عمري؛ جميعُهم يختبئون خلف أمهاتهم عداي!

نظر أبي إليّ:

- أأنتِ بخير؟!

- سأكون كذلك.

- متأكدة؟!

- نعم..

لم أكن بخير كُلّياً، لكن على الأقل لم أكن جبانة.. قضيتُ يومي الأول هناك بمفردي من دونكِ، تمتمتُ بالدعاء الذي أخبرني أبي عنه عندما أكون خائفة، تلوتُ المعوذات وآية الكرسي ورددتُ مستغفرة (أستغفر الله العظيم وأتوب إليه)، أخذتُ نفساً عميقاً، لقد أصبحت أفضل الآن!

فُتِح باب الصف وبدت امرأة سمينة تملأ الباب مرتديةً نظارات، حجاب، وشيء من اللباس الإسلامي يغطي بدنها.. لن أنسى كيف خاف الصف – وأنا منهم – عند رؤيتها حتى بدأ البعض بالبكاء.. كانت لطيفةً جداً معنا لولا ضخامة مظهرها المفزع! في البداية

تعرفنا على بعضنا؛ كان اسمُها (فطنة)، أو بالأصح مِس (بطة) فقد طلبت أن ننعتها بهذا الاسم.. بدأت بتلقيننا سورة الفاتحة، أتبعت كلامها أنه من المستحيل أن أحداً منا لا يعرفها فنَحنُ مسلمون ونؤدي الصلوات الخمس بها..

- سوف أتلوها عليكم، رددوها خلفي: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم (١)﴾
- ﴿بسم الله الرحمن الرحيم (١)﴾
- ﴿الحمد لله رب العالمين (٢)﴾
- ﴿الحمد لله رب العالمين (٢)﴾
- ﴿الرحمن الرحيم (٣)﴾
- ﴿الرحمن الرحيم (٣)﴾
- ﴿مالك يوم الدين (٤)﴾
- ﴿مالك يوم الدين (٤)﴾
- ﴿إياك نعبد وإياك نستعين (٥)﴾
- ﴿إياك نعبد وإياك نستعين (٥)﴾
- ﴿اهدنا الصراط المستقيم (٦)﴾
- ﴿اهدنا الصراط المستقيم (٦)﴾
- ﴿صراط الذين أنعمت عليهم (٧)﴾
- ﴿صراط الذين أنعمت عليهم (٧)﴾
- ﴿غير المغضوب عليهم (٨)﴾
- ﴿غير المغضوب عليهم (٨)﴾
- ﴿ولا الضآلين (٩)﴾
- ﴿ولا الضآلين (٩)﴾
- (صدق الله العظيم)
- (صدق الله العظيم)

أيمكنكِ حفظها الآن؟! أعلم أنه يمكنكِ؛ لقد أخبرني أبي أنكِ ذكية جداً ولا يصعب عليك أمر.. ليتكِ أمامي لتريني كيف كنتُ أرددها لأراكِ مبتسمةً، وتشجعينني فيما تعلمته.. آهٍ كم أفتقدكِ وأبي! أمي زوريني بواقعي مرّة، فطيفكِ في منام عينيّ يؤذيني، أريد أن أحتضنكِ وأتمتم هامسةً لمسمعكِ ماذا فعل بي الوزير السرطان.. كيف هو صوتكِ؟ أخبرني أبي أنكِ تُجيدين الغناء كـ **فيروز**، كُنتِ فيروز صباحه؛ قال لي ذات يوم حينَ سمعني أدندن قرب شرفتي، معاتباً إياي أنني بعمر العاشرةِ أغني للعشق وأتمايلُ مع الحب، أمسك بمنديلكِ معي، عرف حينها أنني أمشي على طريق حُبك..

تركتنا مس بطة نرددها لخمس مرات، ثم سمعتها مِنّا غيباً كُلٌّ يتلوها على حده.. مر وقت طويل مع آيات الله المقدسة في هذه الحصة، دق جرس الفسحة فخرجنا بعد أن حذَّرَتنا أن لا نتأخر في العودة لنتعلم الوضوء والصلاة في الحصة التالية..

خرجتُ في الفسحة، كُنتُ بمفردي كالعادة لا أعرف أحداً، فتحتُ حقيبتي وتناولتُ فطوري؛ شطيرة الجبنةِ السائلة التي لطالما تلذذتُ بها والتي لا أستطيع تناولها الآن تبدو كحُطام منزل جدي على معدتي، تناولت أيضاً الحليب الأبيض كثيرَ السُكَّر كما أحببته دائماً، لقد كان أبي طاهياً ماهراً أيضاً..

لفت انتباهي فتاةٌ تلوّح بيديها مباشرةً إليّ لأرمي لها الكرة التي سقطت بجانبي.. خَجِلتُ كثيراً فأنا لا أعرفُ كيفَ أركلها حتى! نهضتُ من مكاني، أزلتُ بقايا الأكل العالقة بثيابي، وتركتُ حقيبتي وما بها جانباً؛ احتضنتُ الكرة بكلتا يديّ وتوجّهتُ لأعطي الكرة لفتاتين تشبهان بعضهما كثيراً.. ماذا قال أبي عنهما؟ امم، ها صحيح؛ (توأم) سالي وسيلا.. أعطيتهما الكرة فشكرتاني، عُدت لحقيبتي المتروكة مع بقايا الحليب في طرف ساحة المدرسة فوجدتُ هناك ثلاثة أولاد يكبروني بسنتين على ما يبدو - كنت أزيدهم طولاً ببعض سنتيمترات - يقفون أمام حقيبتي، وما إن اقتربت حتى أخذوها وقلبوها رأساً على عقب مُخرجين كلّ محتواها.. رفعتُ ناظري إليهم:

- أعيدوا لي الحقيبة!!

قال أحدهم ضاحكاً:

- لا أسمعكِ؛ ماذا تقولين؟

كررتها بصوتٍ أعلى:

- أعد الحقيبة!

اقترب مني يريد أن يشدّني من شعري؛ لقد كانوا معروفين بأفعالهم هذه مع جميع الأطفال.. وما إن اقترب ومدّ يده حتى وقع على الأرض باكياً، اقترب الثاني وصادفه نفس المصير فهرب الثالث.. علمني أبي بعضَ الحركات التي أدافع بها عن نفسي على أن لا أستخدمها في أذية الآخرين أبداً..

أُخِذنا جميعاً لمكتب الناظرة (مِرفَت)، ومنذ اليوم الأول تم استدعاء أبي إلى المدرسة، كتب أبي وآباء الأولاد تعهداً ألّا يضرّ أحدٌ الآخر مهما حدث، ولم يتعرضوا لي ثانيةً ولا المتنمرين من شاكلتهم.. كسبتُ الكثير من الصديقات وقتذاك..

انتهت الفسحة، عُدنا للصف لإكمال درس الوضوء والصلاة؛ الوضوء قبل كلّ صلاة، ومن المستحب تجديد الوضوء.. بدأنا بالوضوء؛ أحضرت مس (بطة) القليل من الماء مؤكدةً أنَّ الإسراف حرام وإن كُنت على نهرٍ جار كما أتى عن حديث النبي – صلّى الله عليه وسلم – وبدأت بالنية حيث أنها أول شروط الوضوء ومكانها بالقلب..

الاستنجاء، نقول بسم الله، نغسل اليدين إلى الرسغين ثلاث مرات مع خلخلة الماء بين الأصابع، المضمضة (إدخال الماء إلى الفم وإخراجه) ثلاث مرات أيضاً، الاستنشاق (شهيقٌ خفيفٌ لدخول الماء إلى الأنف ثم زفير لإخراجه) ثلاث مرات أيضاً، غسل الوجه كاملاً ثلاث مرات، نعود الآن إلى اليدين ونغسلهما إلى المرفق ثلاث مرات، نمسح الرأس مع الأُذنين مرة واحدة، ونختم الوضوء بغسل الرجلين إلى الكعبين مع خلخلة الماء بين الأصابع ثلاث مرات.. وبعد أن ننتهي نقرأ دعاء الوضوء (أشهد أن لا إله الا الله وحده لا

شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهّرين)..

أكملنا درس الوضوء، جعلت مس بطة كل واحد منا يطبقه أمامها بالطريقة التي نعرفها من قبل ثم مرة أخرى بالطريقة التي علمتنا إياها، صححت لي الكثير من الأخطاء، لقد كنتُ فخورة جداً بنفسي كوني أتعلم تعاليم الإسلام يا أمي..

****

أما بالنسبة للصلاة؛ فنحن نمتلك خمس صلوات يومية لله تعالى: (الفجر، الظهر، العصر، المغرب، والعشاء) لكلّ صلاة عدد معين من الركعات؛ فالفجر ركعتان، الظهر أربع ركعات، العصر أربع ركعات أيضاً، المغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات.

علمتنا مس بطة كيفية صلاة على النحو التالي:

الاتجاه إلى القبلة، النية للصلاة، ثم إقامة الصلاة؛ تذكّرتُ أذان أبي على مسمعي في عيد مولدي الماضي، ولكن هذا كان مختلفاً قليلاً في نهايته..

رَدّدت:

اللهُ أكبر اللهُ أكبر..

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله..

حيَّ على الصلاة.. حيَّ على الفلاح..

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة..

اللهُ أكبر اللهُ أكبر... لا إله الا الله.

ثم تكبيرة الإحرام للبدء في الصلاة؛ تكبيرة واحدة مع رفع اليدين حتى الأذنين؛ (الله أكبر)، ثم بعدها نقول دعاء الاستفتاح: (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك)، نبدأ بقراءة سورة الفاتحة ثم نتبعها بسورةٍ قصيرة..

- مثل ماذا يا أبطال؟

تهاتف الأطفال:

- الإخلاص، الفلق، الناس، الكوثر، العصر...

- ثمَّ (الله أكبر) والركوع - امتثلت راكعةً - وهنا نقول؟

فأجاب أحد الاطفال:

- سبحان ربي العظيم وبحمده، سبحان ربي العظيم وبحمده، سبحان ربي العظيم وبحمده..

- أحسنت.

استقامت قائلةً: سمع الله لمن حمده.

هَتفنا جميعاً:

- ربنا ولك الحمد..

- (الله أكبر) والسجود، واضعةً المواضع الخمس للسجود على الأرض (الجبهة والأنف وباطن الكفين والركبتين وباطن أصابع القدمين).. أكملت:

- ماذا نقول؟

الصف هاتفاً:

- سبحان ربي الأعلى وبحمده، سبحان ربي الأعلى وبحمده، سبحان ربي الأعلى وبحمده..

ثم رفعت من السجود وجَلَسَتْ على ركبتيها..

- وهنا ماذا نقول؟!

أجبنا:

- ربي اغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين.

- (الله أكبر) السجدة الثانية..

وانتصبت واقفةً: "الله أكبر"، مكملةً الركعة الثانية بنفس الركعة الأولى تماماً إلى أن انتهت من السجدة الثانية حتى جلست لتقرأ التشهّدين الأول والأخير..

- الأول ما هو يا حلوين؟
- التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله..
- والأخير هو؟
- اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

في خاتمة الصلاة التفت نحو يمينها قائلةً: "السلام عليكم ورحمة الله"، ثم شمالها: "السلام عليكم ورحمة الله".. وأصبحنا من ذلك الحين نصلّي الظهر جماعةً في المدرسة..

أكنتِ تسترقين النظر إلى أبي عندما يصلّي؟!

الصلاة - يا أمي - دواء الروح، ومن تعبت روحه فعليه أن يتوجه بركعتين لله طالباً الخلاص من كلّ التعب.. كما أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتحفظ النفس من الميل إلى السوء..

****

(١٥)

خمسة عشر عيد لكِ، اثنا عشر عيد ديني، عيد ميلادك، عيد حبك، وعيد زواجك..

****

أخبرتُ أبي بما تعلّمته في اليوم الأول من المدرسة فتمتم راضياً عمّا يتناوله عقلي من صلاح بعيداً عن همجيةِ الطوائف والتفرقة، لقد بات فخوراً كوني فتاة وأتعلّم كل هذا، على عكس بلادنا؛ فهي تضطهد حق الفتاة من التعلم.. لقد رأيتُ ذلك في عمتيّ ـ رحمها الله ـ أيضاً ماما عطر لم تكن متعلمة.. تبادر إلى ذهني سؤال كان يخشى أبي أن أتطرق له لكني فعلتها وسألته عن دينكِ، تردد قليلاً في الإجابةِ قبل أن يجيب..

- بابا.. نحن المسلمون وهذه تعاليم ديننا وصلاتنا، فكيف كانت أمي تعبد الله؟!

قبّل رأسي ووضعهُ على صدرهِ:

- لن أحكي لك قصتي مع أمكِ الليلة؛ سأخبركِ عن ديانةِ أمّكِ وطريقة تعبدها لله. الديانة **العبرية** تؤمن أن الله سبحانه هو الواحد الأحد ومفهوم الإله في معتقداتهم هو ذلك المستمد من الأسفار الأولى في **التوراة**، فالله هو فرد، صمد، قادر، رحيم، عادل، خلق الناس لتعدل وترحم بعضها البعض.. وجميع الناس تستحق أن تُعامَل باحترام وكرامة..
- حقاً؟! الإسلام يوصي بنفس هذه الأشياء، ولديه نفس المعتقدات عن الله تعالى.
- وهي ديانة غير تبشيرية؛ أي أن تعاليم اليهودية لا تسمح للآخرين بالانتماء إليها، فلا يجوز لأيٍّ من الديانات الأخرى أن تعتنق اليهودية، وأن هذه الديانة ليست إلا للشعب اليهودي..
- والإسلام؟ أيفعل ذلك أيضاً؟!

- الإسلام يستقبل الناس من كلّ الأديان، وأي شخص يستطيع الانتماء إليه في الوقت الذي يُريد حيث أنه لا يُحاسب عما فعله قبل دُخوله الإسلام وكأنما ولدتهُ أمهُ لحظتها، لكنه يُحاسب على جميع أعماله ما إن يصبح مسلماً..
- كيف يدخل للإسلام؟ هل يكتفي بقول أنا مسلم؟!
- لابد له أن يغتسل وينطق الشهادتين كإعلانٍ عن إسلامه.
- وماذا أيضاً؟!
- يعتقد اليهود عن ديانتهم أنهم يخدمون ربهم بالصلاة ومراعاة الوصايا التوراتية، كما يعتقدون أنهم الشعب الحامل للرسالة وليس لغيرهم الحق في ذلك..
- ولِمَ يعتقدون ذلك؟!
- السبب هو إيمانهم الكامل بأنهم شعب الله المختار.. وتؤمن اليهودية بالافتداء والخلاص والنجاة، لكنها تخالف العديد من الديانات الأخرى في أن السبيل إلى الخلاص والنجاة في الحياة الأخرى (ويقصدون بالحياة الأخرى الحياة ما بعد يوم القيامة) لا يكون بالعقيدة وإنما بـ(الأفعال)؛ أي أن الأفعال الصالحة هي التي تمكن البشر من النجاة وليس العقيدة التي يتبعونها..
- ما سبب إيمانهم هذا؟!
- يعود لسبب واحد؛ أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا من اليهود عدا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
- والإسلام أيضاً يحثّ على الأعمال الصالحة.. ما الفرق؟!
- الفرق يا ملاكي أن اليهودية تؤمن بـ (الأعمال) الصالحة نفسها لا بالعقيدة المنتمية إليها حيث أنهم مقسمون إلى طوائف عديدة؛ فمنهم من اتجه إلى تطبيق الطقوس بشكل أساسي، ومنهم من اعتقد أن التعاليم السلوكية والأخلاقية أهم أجزاء اليهودية

ولا يولون أهميةً للطقوس؛ فكل طائفة تؤمن بما لها من صلاحيات، ويجمعهم أنهم ينتمون في الأخير إلى الديانة (العبرية)..

- والإسلام؟!

- الإسلام يقتضي أعماله الصالحة بالنية الساكنة بالقلب التي تستطيعين من خلالها التواصل مع الله..

- أليس الله قريباً منّا؟!

- إنه كذلك؛ لقوله تعالى ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦)﴾ سورة ق. النية تُقربنا إليه أكثر، وعندما تنوين عمل شيءٍ صالح فإنكِ تؤجرين عليه، وتُكتب لكِ عند الله بعشرة أمثالها..

- وإن كان عمل شر؟!

- تَكتبُ الملائكة السيئة بمثلها، أي أن الشرّ لا يتضاعف، يتضاعف الخير فقط..

- من هم الملائكة؟!

- عزيزتي.. هم مخلوقات الله عز وجل؛ خلقهم من نور، لا يخالفون له أمراً، ومنهم ملكان عن يمين وشمال كل الناس؛ مَلَكٌ يُسجّل الأعمال الحسنة، ومَلَكٌ يُسجّل الأعمال السيئة، وصفتهما أنهما ﴿رقيبٌ عتيد﴾.. لقوله تعالى: ﴿خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد (١٨)﴾ سورة ق.

- واليهود؟!

- اليهود أيضاً يمتلكون هذين المَلَكَين.

- أتُسجل أعمالنا في دفاتر مثل دفاتري المدرسية؟!

- في الواقع تسمى كُتُب؛ لقوله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه (٧) فسوف يحاسب حسابا يسيرا (٨) وينقلب إلى أهله مسرورا (٩) وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعوا ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢)﴾ سورة الانشقاق.
- أتُسَلَّمُ كتبهم؟!
- أجل تُسَلَّم؛ وذلك يوم البعث والنشور.
- ما هو يوم البعث؟!
- يوم القيامة.
- حسناً؛ كيفَ تُسَلَّم؟!
- تُسَلَّم ليمين صاحب الأعمال الحسنة، لذا أكثري من الأعمال الحسنة..
- ومن يستلم كتابه بشماله؟
- صاحب الأعمال السيئة والشريرة.
- ما الفائدة من كل هذا؟
- الجنة والنار.
- أتقصد أنّ من يُمسك كتابه بيمينه سيدخل الجنة، ومن يمسكها بشماله سيدخل النار؟!
- نعم.
- وأمي؟ هل أعمالها صالحة؟
- أمر الديانات والجزاء عليها لا يعلمه إلا الله، فلا أستطيع إخبارك عنها شيئاً.. الله تعالى وحده يُحاسب، والله وحده يُجازي، سأخبرك قصتين؛ هناك يهودي سَقى كلباً ظمآناً بخُفِّهِ فدخل الجنة، وهناك امرأة مسلمة حبست هِرَّةً فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت فدخلت النار.
- حُدد مصيرهم فقط من الحيوانات، أتمازحني يا أبي؟!

- في الحقيقة لا أمزح؛ فكلّ ما في الأرض سخره الله للإنسان، لذا على الإنسان أن يُحسِنَ في المعاملة وإلا فإن بئس المصير له حتى في الحيوانات يا عهد..
- وماذا أيضاً؟!
- الصلاة في اليهودية تختلف عن الإسلام، ففي اليهودية تُتلى الصلاة في المنزل ثلاث مرات يومياً؛ في الصباح، بعد الظهر، وبعد الغروب.. وتُقام الصلاة جماعةً في **الكنيس** أيّام السبت، الإثنين، والخميس، وأيام الأعياد اليهودية يمكن للفرد أن يؤدي الصلاة منفرداً أو مع جماعة مع تفضيل صلاة الجماعة، وتستخدم الألحان في الصلاة، كذلك يستخدمون اللغة الدينية أو العامة أثناء تأدية صلاتهم.. ماذا نستخدم نحن؟!
- نمتلك خمس صلوات ونتلوا فيها القرآن بلغة القرآن ونرتله ترتيلاً وليس لحناً.. هكذا قالت مس بطة.
- أحسنتِ يا ملاكي الصغير..
- بابا.. الإثنين والخميس في الإسلام كنتُ أرى جدتي تصومهما كيف ذلك؟!
- صيام الإثنين والخميس في الإسلام سنةٌ من سُنن النبي صلى الله عليه وسلم.
- ما الفرق بينهما وبين شهر رمضان المبارك؟
- الفرق أن شهر رمضان المبارك ركن من أركان الإسلام التي أخبرتكِ عنها شيخة المسجد.. أتتذكرين؟
- نعم؛ أتذكر.
- والإثنين والخميس سنّة يثاب فاعلها ولا يُؤثم تاركها.

طأطأتُ رأسي متفهمةً لكلامه، أكمل قائلاً:

- ويسمى المعبد الذي تؤدي فيه صلاتهم بـ(الكنيس) وجمعها (كُنُس) حيث أنه يُمنَع استخدام الصور والتماثيل في التزيين، وهو الأمر المطبق في جميع (الكُنُس) اليهودية. أتعلمين ماذا يُسمى مكان تعبدنا لله؟

- (مسجد) وجمعها (مساجد).. تمتمتُ له..

أتتني لحظة خاطفة للمسجد ذي المنارة الخضراء الطويلة الملازمة لمنزل جدي وكيف أصبحت منارتها منغمسة في الأرض كرأسِ نعامةٍ تختبئ خوفاً.. قطع حبل تذكري للماضي قائلاً:

- صحيح.
- وماذا بعد؟!
- ويمتاز يوم السبت بقدسيةٍ خاصّة حيث خلاله تُتلى ترانيم (الزميروت)..
- السبت؟
- في الإسلام يوم الجمعة يسمى بعيد المسلمين ويتم تأدية صلاة الجمعة فيه أليس كذلك؟!
- نعم.
- كذلك في اليهودية؛ ويكون ذلك في يوم السبت.
- أهاه.
- أما أعيادهم؛ فهم يمتلكون العديد من الأعياد الدينية، مثل بيوم (طوب) أي اليوم الجيد والصالح، وعيد (تاعنيت) أي الاحتفال، وأعيادهم الرئيسية ثلاثة وفق التقويم الخاص بهم وهي: عيد الفصح اليهودي أو ما يعرف بـ(بيساح) الذي يُحيي ذكرى النجاة والخروج من مصر، عيد المظلة المعروف بـ(سوكوت) ويكون فيه إحياء ذكرى الإقامة في الصحراء، وعيد الأسابيع المعروف بـ(شفوعوت)، ويُحيي ذكرى نزول القوانين على جبل سينا.. وتعتبر هذه الأعياد مناسبات للحج إلى (أورشليم؛ القدس) مع الصلاة عند حائط المبكى؛ وهو بقايا الجدار الاستنادي الخارجي لجبل الهيكل، ويعلن الحداد على خراب الهيكلين المُقَدَّسين، إضافةً إلى أعياد ومناسبات أخرى منها عيد (رأس السنة اليهودية)، وعيد صوم يوم الغفران، وعيد الأنوار (حانوكا) إحياءً لذكرى انتصار المكابيين وإعادة تكريس الهيكل في (أورشليم؛ القدس)، عيد المساخر (بوريم) إحياءً لذكرى إنقاذ

الشعب اليهودي في أيام الملكة (استر)، ويوم ذكرى ضحايا **الهولوكوست** (الكارثة) إحياءً لذكرى ستة ملايين يهودي قتلهم النازيون ويوم (بدء الاحتلال)..

- كل هذه أعيادهم؟!
- هي كذلك.. أتعلمين ما هي أعيادنا؟!
- نعم؛ عيد الفطر وعيد الأضحى.
- أخبريني ماهي مناسبتهما..
- لا أعلم.. مس بطة قالت ستخبرنا الأسبوع القادم عن أعيادنا والأيام المباركة.
- لا بأس؛ سأخبركِ.. عيد الفطر يأتي بعد شهر رمضان المبارك، وعيد الأضحى سُمّي كذلك عن قصة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل.

تربعتُ جالسةً بلهفة:

- أي قصة يا أبي؟!
- حسناً؛ أوحي إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه..
- كيف أوحي إليه؟
- عن طريق حلم.
- حلم! بمجرد حلم سيقتل ابنه!
- عهد.. أحلام الأنبياء ليست كأحلامنا أبداً، فكلّ حلم يرونه يسمى رُؤيا، والرؤيا هي أوامر من الله للنبي.
- وماذا حدث بعد ذلك؟!
- أخبر سيدنا إبراهيم ابنه عن رؤياه فقال له ابنه: "افعل ما يأمرك به الله وستجدني إن شاء الله من الصابرين"..
- وذبحه يا أبي؟!

- استعدّ إبراهيم وابنه لتنفيذ أمر الله، وعندما أوشك إبراهيم على ذبح إسماعيل فداهُ الله بذبح من السماء فسُمّي العاشر من ذي الحجة بعيد الأضحى، والتسعة الأيام الأولى من هذا الشهر يتم فيها مراسيم الحج للمسلمين في مكة المكرمة والتي تستمر حتى ثالث أيام العيد.
- واو! كأنها قصة خيالية.
- لكنها واقع يا عزيزتي.. كانت أمك تنتمي إلى الطائفة اليهودية المحافظة تؤمن بالتوراة والتلمود حيث أن التلمود هي القضايا الفقهية (هالاخاه) والوعظية (آجاداه)، لم تهتم كثيراً بالطقوس واكتفت فقط بالعادات. الغنوصية هي نوع آخر من المعتقدات التي كانت أمكِ تؤمن بها، وهي اعتقادٌ بوجود إلهين؛ إله النور والخير، وإله الظلام والشر.
- أبي.. لِـمَ لم تدعُ أمي لدخول الإسلام؟
- أخبرتها، لكنها قررت تعلُّم تعاليم الإسلام أكثر بعد أن تلدكِ، ورحلت قبل أن أخبرها بشيء.
- أنا آسفة حقاً..
- لمَ الاعتذار يا عهد؟
- لأني من قتلها..
- عهد – ضمني إلى صدره – لستِ السبب؛ فهذا قضاء الله وقدره، وعلينا أن نؤمن به في كلّ وقتٍ وحين. الله يختار الخير دائما لنا، هيا لنذهب للنوم..
- هيا..

****

استلقيت على فراشي أفكر فيكِ وأبي،
ديانتكما،
كلاكما تؤيدان السلام،
تؤدّيان طقوسكما بشكلٍ مختلف،
محرابكِ وسجادته،
أدعيتكِ ومسبحته،
ألحانكِ وترتيله،
أعيادكِ وأعياده،
صيامكما،
سبْتكِ وجمعته،
كتابكِ المقدس وقرآنه،
كنتما شيئين مكملين لبعضهما..

****

لم أكن أعلم أن الإسلام يحمل في طيّاته كل هذا، لقد تساءلت كثيراً كيف لرحيم أن يكون رحيماً بالمعنى المسمى له، لم يكن يحترق غِلّا أو عنصريةً ضد أيّ ديانة أخرى بل على العكس تماماً؛ لقد تزوجني بديانتي الهندوسية، لا أعبد ربكِ يا عزة ولا ربه.. أعلم أن عهد لن تغفر لي إن علمتْ أنّي تسللتُ إلى رسائلها لكِ، لكنّي لا زلتُ أنتظر صوتها، ورمق جفنيها، أسئلتها اللا منتهية، وفضولها الشديد تجاه أي شيء تراه.. ابنتكِ أو ابنتي، ذكية جداً بقدر جمالها، اشتقت لها.. عزة! بما أنكِ في السماء توسلي للرب أن يجعلها بخير..

بيال

حين يخبرني أبي عنكِ أن حضنكِ جنة؛ أحسدهُ، فقد أستطاع المكوث في جنتكِ بينما أتيتُ أنا فأحرقتُ كلّ شيء كالمتذمر صاحب الجنتين، أحرقتكِ، أحرقت وطني، أحرقت قريتي وأبي، أحرقتُ كلَّ شيءٍ حولي حتى أحرقت نفسي!

غالباً ما أفكر أن عشق الوزير السرطان لي هو الجزاء العادل لما تسببت من رماد شهقاتي الأولى على هذا الكوكب؛ لا ألوم جدي حين تمتم تلك الليلة:

- أي كارثة ستجلب هذه لنا؟!

****

نحن في دائرة الهروب المؤدي لطريق العودة.. اشتياق، ألم، وتلك الوجوه التي لا تغيب!

****

(١٦)

عجائب الدنيا السبع تعجبت وسكنت علامة التعجب رأسها فأصبحت أربعة عشر عجيبة، وأنتِ ثامنها، والعلامة سكنت رأسي، فأتممنا السادسة عشر!

****

صباح يومٍ ما؛ بينما أستعد للمدرسة وأبي يحتسي قهوته مع جريدة الصباح، أتاه اتصالٌ مُنتَظَر، كانت إحدى الشركات الإعلامية التي تريد مقابلته بعد ساعتين من اتصالها، أخذني للمدرسة وذهب للمقابلة..

قُبِلَ في تلك الوظيفة التي أسعفته بها شهادته من جامعة الأزهر، اتضح بعدها أنها شركة والد صديقه محمود.. لقد قضى أبي والعم خالد ومحمود أياماً دراسيةً جميلة، امتلك وظيفةً بعد عناء دام عاماً كاملاً منذ سفرنا.. تحسنت حالتنا في الغربة في تلك الفترة، روتين يومنا تغير نوعاً ما؛ أذهب للمدرسة ويذهب أبي للعمل، يستأذن من العمل لمدة ساعة يومياً، يمرُّ إلى المدرسة فيأخذني وأقضي بقية اليوم في مكتبه إلى أن تغيب الشمس، نعود للمنزل، نتناول العشاء وننام..

كنت أريد أن أقضي ذلك الروتين الممل معكِ؛ رسمت لكِ صورةً كانت تشبهكِ، ليس كثيراً؛ لكن على الأقل تشبهكِ، لقد ساعدني أبي في إكمالِها..

- عهد! ماذا تفعلين؟
- أرسم أمي..
- هل أساعدكِ؟
- لَا لا.
- ملاكي الصغير ليس على ما يرام اليوم، ما بكِ؟ هل حدث شيء أزعجكِ في المدرسة؟

صرختُ باكيةً:

- لا لم يحدث شيء؛ فقط أريد أمي.. أريد أمي.. جميع الأطفال لديهم أمهات عداي..

دفنني بصدره قربُ نبضاته المتدافعة:

- يا حبيبتي.. أنا أبوكِ وأنا أمكِ أيضاً.. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟!

- بابا! عدني أنك لن تتركني وترحل.

- أعدكِ يا عهد.. أعدكِ.

ها أنا أنتظره منذ عامٍ ونصف، لا أعلم أين أخذته الرياح.. عامٌ ونصفٌ يا أمي وكلماته تتردد بكثرةٍ على مسمعي.. "أعدكِ يا عهد.. أعدكِ".

لم يبقَ أحدٌ على عهدهِ إلّا هذهِ الأجهزة المتصلة بجسدي تُصارع شعري وتأكل جسدي.. لم يبقَ أحد سوى من عشقني؛ عشيقي الوزير السرطان.. ليته يخلفُ بوعدهِ مثلكم ويرحل ويتركني أنزح، ألجأ، وأصنع لي مخيّماً..

****

أنا متعبة..

كطيرٍ مكسورِ الجناح،

كسفينةٍ أخذها الأزديُّ غصباً،

كبستانٍ أحرقه كسرى،

كقدسٍ احتله الصهاينة،

كزيتونة الشام تداوي مستوطِناً فرنسياً،

كعنبِ اليمن اعتصرته الحرب خمراً حتى أصابها السُكْر،

جميعنا نعاني السرطان،

جميعنا نصارعه بسلاحنا الوحيد الكيماوي،

هه...!!

ولا أحد ينجو..

****

(١٧)

كلمات الاشتياق تصرخ بداخلنا وترسلها كابتسامة شفاه أو سبعة عشر ذرفة عين..

****

(١٩٨٢م، في المنزل)

- إسرائيل تغزو لبنان ثانيةً لطرد قيادة منظمة (التحرير الفلسطينية) من بيروت وذلك عقب محاولة الاغتيال التي استهدف فيها فيصل فلسطيني السفير الإسرائيلي في لندن.
- أيضاً: حلفاء إسرائيل من اللبنانيين يقترفون مجزرة (صبر) و(شاتيلا) في بيروت التي راح ضحيتها مئات اللاجئين الفلسطينيين.. بينما انتقلت قيادة منظمة (التحرير الفلسطينية) إلى تونس بعد حصار إسرائيل لبيروت واقتحامها.
- اجتماعات جديدة في مجلس التعاون لدول الخليج الذي أُسِّسَ العام الماضي.

كنا نشاهد التلفاز حين سمعنا هذه الأخبار غير السارّة؛ ما زالتْ منظمة التحرير الفلسطينية تجاهد دفاعاً عن أرضها إلى يومنا، وإسرائيل لا تزال تبطش في الأرض فساداً - يا أمي - هؤلاء الصهاينة اغتصبوا أرضاً ليست أرضهم وعاثوا فيها دماراً وخراباً بدباباتهم وأسلحتهم وليدة القارة الأوروبية والأمريكية، والعرب كالعادة في سباتٍ، وسيظل هذا السبات إلى أجلٍ غير معلوم، أو لن يكون هناك أجل لصحوة ضمائرهم ونخوتهم الغيورة بحرية القدس محتلة.

لم تكن القضية الفلسطينية قضية العرب يوماً فتزايُد الود مع إسرائيل يخلقُ فجوةً عميقةً للتشكيك في أصل العروبة.

****

ضربات متتالية على باب المنزل!

نظر أبي إليّ..

- عهد! أتنتظرين أحداً؟

- لا.. حتى أن سالي وسيلا، ستأتيان غداً وليس اليوم.

- غريب؛ من سيأتي في هذا الوقت؟ من هناك؟!

من خلف الباب:

- عُمَر! هذا أنا؛ خالد.

نعم.. إنه هو العم خالد صديق أبي القديم في اليمن، هنا في مصر.. أبي والدهشة تملؤ وجهه والفرحة تغمر قلبه في آن واحد:

- خـالـد!

فتح الباب وفضائح الشوق تتراقص في عينيه، ولهفته لتقبيل الأرض على هذه الصدفة، الشوق ضيف ثقيل الدم يأتي فجأة ويبقى إلى الأبد..

ماما عِطر رأتني قائلةً:

- عهد! لا أصدقُ هذه أنتِ ما شاء الله، لقد كبرتِ وأصبحتِ شابة جميلة كأمكِ تماماً..

أخذتني للمطبخ كي نُحضِّر العشاء والشاي، واصطحب أبي العم خالد إلى غرفة الضيوف، تناولنا العشاء تلك الليلة وشربنا الشاي ثم بدؤوا بالحديث عما حدث منذ كارثة القرية التي ذهب ضحيتها أهلهم.. وبعد الكثير من القصصِ غفوتُ بحضن ماما عِطر، ثم أخذتني لغرفتي.

صباح اليوم التالي استيقظتُ على صوت ماما عِطر؛ فقد استقرّا في منزلنا ريثما يجدان منزلاً مرتباً وقريباً من منزلنا.

- عهد..

- نعم؛ ماما!

- أنتِ الآن في المدرسة، أليس كذلك؟
- نعم.. أصبحتُ في الصفِّ الرابع، وأنا الآن في إجازةٍ بعد إكمالي الصف الثالث.
- ما شاء الله! عهد أتعلمين أنّكِ كلما كبرتِ تأخذين ملامح أمكِ أكثر؟!
- أتعرفين أمي؟
- نعم؛ لقد كانت صديقتي، هي من أتت إلى منزلنا لتخطبني من أهلي لخالد، فقد كانت والدتها ووالدتي صديقتين.
- بعدها أصبحتما صديقتين؟
- وأكثر من ذلك يا عهد؛ كانت أختي.. اسمكِ جميل جداً أتعلمين لِـمَ؟
- لماذا؟
- أمكِ منذ شهرها الأول في حملكِ كانت تناديكِ عهد.

هدية أخرى أعطيتِني! اسمي؛ تركتِ لي ملامحِكِ مغلّفٌ بجانبها اسمي.. أصبحتُ لا أفارق المِرآة أُحدثني لأُحدثكِ، أنظُرني لأنظر إليكِ، عندما أشتاق لكِ أرى ملامحِكِ المرسومة بي، حتى أنكِ تركتِ لي روحكِ ورحلتِ.. أنا أُعاني منكِ؛ فقدانكِ دائي وعطاياكِ دوائي، تركتِني أعاني إزرقاقي حتى تجمدت، تاهت أشواقي إليكِ فباتت تتلاطم كالأمواج، لقد بلغتُ قبل بلوغي ووعيتُ قبل وعيي، لِـمَ لم تكوني أنانيةً وأخذت روحكِ وأكملتِ مع حبكِ قصتكِ الغرامية؟ ثم تحملين من جديد ويأتي أخي أو أختي وتحكين لهم كم أنك حزنتِ على موتي.. سيكبرون وتحاولين نسياني، ما دوائي لأنساكِ الآن؟! أحرر هذا القلم من قبضة رثائك.. لِـمَ قررتِ التضحية بخمسةٍ منكم من أجلي؟! أكان العدد سبعة هو العدد المثالي للعائلة التي تُريدينها؟! "ولدان وفتاتان وفتاة وأنتَ وأنا"؛ ألم تكن هذه هي واحدة من رسائلكِ لأبي؟! رحلتِ بـ"ولدين وفتاتين وأنا" وتركتِ " فتاة وأنتَ" ـ العائدة على أبي..

تختار الأشواق قلوبنا بدقّة، تمارس موهبتها خاليةً من الأخطاء، تُستَضاف فتكون ضيفة لياليا، وتشرق قبل شمسنا.. لقد اشتقنا لأولئك البعيدين، وليس على قلب المشتاق حرج.

****

(١٨)

أصبحتُ أعزف على أوتار قلبي أحد عشر بيتٍ، وأنا تتكرر أربعاً لتتمَّ الخامسة عشر، وثلاثة أوتار؛ أنتِ، وأبي، ونايُ يركن زاوية روحي..

****

سمعني أبي أُغني مقطوعتك المفضلة من أغنية **أحبك في صمتي الوارف**.. تصفيقٌ يعلو المكان:

- الله! كأمِّكِ تماماً يا حلوتي.. كيف عرفتِ أنها أغنية أمكِ؟!

رفعتُ إليه منديلكِ الذي خُطَّت عليه أغنية فيروز.. رفعتُ له حبي لكِ، رفعتُ له تلك القطعة المُشبَعَة بكِ.. عرف حينها أني فتحتُ صندوقه باحثةً عن شيءٍ لكِ، لكني لم أجد؛ فوجدت منديلك في قميصه الذي أهديته إياه في عيد زواجكما الأول..

كنتُ في العاشرةِ من عمري أدندن موسيقاكِ المفضلة، والآن أصبحتُ في زنزانتي يدندن الحزن موسيقاي اليائسة لتلك الورقة أعلى الشجرة؛ رجاءً لا تسقطي حتى يعود أبي! لا أعلم كم مرةً سأسمعها قبل مجيئي إليكِ، أو قبل عودته!

بدت تلك الحروف والكلمات أكثر وصفاً لنا؛ كأنما تَركتها الأيام تُغَنّينا، فعند كل مقطعٍ هناك شيءٌ مني، شيءٌ تعمّد أن لا يغادرني..

"أحترف الحزن والانتظار، أرتقب الآتي ولا يأتي"

بات الحزنُ والانتظار موهبتيّ حتى احترفتُهما بدقّةٍ، لا سبيل منهما إلا إليهما، تأملتُ مجيئكِ فكان الأقرب ذهاب أبي! أستنتظران مجيئي؟ أم أنَّكُما لا تمتلكان سوى احتراف البُعد؟!

***

"تبددت زنابق الوقت .. زنابق الوقت عشرون عاماً"

لم يتلاشَ الوقتُ في واقعي، بل تلاشيتُ وتبددتْ ملامحي حتى كادت تختفي، لن تعرفيني إن رأيتِني؛ سيطول انتظاركِ إن كنتِ حقاً تنتظرينني.. لم يتبدد مني سوى خمسة عشر عام، مازال هناك خمسةٌ أخريات لأختفي كلياً..

***

"وأنا.. وأنا.. وأنا.. وأنا أحترف الحزن والانتظار.."

أنا في اليمن، أنا في مصر، أنا في الهند، أأنا الأخيرة ستكون فيكِ؟!

***

"عبرت من بوابة الدموع إلى صقيع الشمس والبرد.."

عبرتُ حتى ما إن دخلتُ فسجنني بداخله، لا صقيع الشمس ولا في برد المكان؛ إنها بداخلي فقط..

***

"لا أهل لي في خيمتي وحدي.. في خيمتي وحدي.."

أتقصدين هنا – يا فيروز – أن زنزانتي هذه هي خيمتي؟! أتقصدين أنّي لجأتُ للوزير السرطان أم أنه لجأ إليّ فأصبحتُ خيمته؟!

***

"عشرون عاماً وأنا.. وأنا.. وأنا.. وأنا يسكنني الحنين والرجوع.."

اشتقتُ لنفسي كثيراً حين كنتُ بأحشائِك.. هل لي بالعودة مجدداً؟!

***

"كبرتُ في الخارج، بنيتُ أهلاً آخرين.."

أصبح الطبيب رحيم خان وزوجته الطبيبة بيال هما الأهل اللذان بنيتهما أو ربما أختارهما القدر لي للمرة الثانية دون علمي، ولا أعلم ما التالي..

"كالشجر استنبَتُّهُم فوقفوا أمامي، صار لهم ظِلٌّ على الأرض.."

المقطع هذا لا يخص أحداً سوى تلك الورقة المعلّقة أمامي؛ ستسقط يوماً من عاليتها.. لابد لها من السقوط لأنها ستنضج يوماً ما..

***

"ومن جديدٍ ضَرَبَتنا موجةُ البُغض، وها أنا أستوطن الفراغ.."

من جديدٍ عاد الوزير؛ فهو البغض وهو الموج الكاره لي، ما زلتُ أسقط؛ لم أرتطم بأحدٍ إلى الآن، سكنني الفضاء فغادرتْ الشمس مني وهاجرتْ النجوم للمجرة المجاورة!

***

"شُرِّدتُ عن أهلي مرتين.. سكنتُ في الغياب مرتين.. في الغياب مرتين.."

شردت عن أهلي مرتين!. يااااه! شُرِّدتُ عنكم حتى تبناني الوزير المبجل؛ وها هو يُصادِرُ ما تبقّى مني؛ من اللا شيء الباقي..

***

"أرضي ببالي وأنا.. وأنا.. وأنا.. وأنا أحترف الحزن والانتظار.."

****

(١٩)

تسعة عشر دقيقة حتى أتى!

****

أصبح العم خالد يعمل مع أبي بذات الشركة الإعلامية؛ حيث عمل في قسم الإدارة الإعلامية.. ماما عطر كانت في شهرها السادس بمولودها الأول؛ اعتدتُ وجودهما في المنزل.. ذهب أبي ذلك اليوم إلى المدرسة لأخذ شهادتي؛ كنتُ الأولى، وكالعادة هو فخورٌ بي مثلكِ تماماً..

- عُمر هل سمعت هذا الخبر؟ سيصبح حديث صباح الغد.

- ما هو يا خالد؟!

- دقيقة سأقرؤه لك..

"الطيران الحربي الإسرائيلي يغير على مقرّ منظمة التحرير الفلسطينية في تونس وذلك عقب الهجوم على سفينة نزهة نفذته جبهة التحرير الفلسطينية والذي أسفر عن مقتل ثلاثة سائحين اسرائيليين وكان مسلحو الجبهة يطالبون بإطلاق سراح خمسين فلسطينياً كانوا يقبعون في السجون الإسرائيلية.."

- الله أكبر! لهثوا وراء منظمة التحرير إلى تونس؟! حسبنا الله ونعم الوكيل.. ماذا عن اليمن والعراق يا خالد؟ هل هناك أخبار جديدة؟!

- الوضع بات مستقراً في الفترة الأخيرة.. قليلٌ من المناوشات التي لا تكاد تُذكر.

- أستغفر الله العظيم.

يقطع حديثهما اتصالٌ من ماما عطر للعم خالد:

- خالد أين أنت؟! لا أعلم ماذا حدث لعهد؛ لقد فقدت الوعي.

- هدّئي من روعك؛ أنا في الطريق..

عمر! يبدو أن عهد مريضة؛ تقول عطر أنها سقطت مُغمى عليها في غرفتها..

- ماذا؟! لنعُد إلى المنزل.
- عطر أخذتها للمستشفى، من الأفضل أن نذهب إلى هُناك.
- ماذا تنتظر يا خالد؟ هيا بنا..

****

هذه الحياة تجمع آلاف القصص والحكايات، حب، حرب، شتات، ضياع، وأُلفة أيضاً.. لطالما جمعتني كأشلاءٍ متناثرة؛ كنتُ ضحيةَ اللا شيء والفراغ الدائم، حتى الهواء الذي يتناوله صدري بات كالسمِّ يُؤذي مرضى الربو ويقتلني..

****

(٢٠)

أتى الوزير كمحتلّ..
ليتكِ هنا لتدافعي عنّي؛
فإنّي برسالة العشرين بتٌّ يائسة..

****

الطبيب رحيم:

- عهد.. عزيزتي حان وقت العلاج.

تمتمتُ بسقوطِ آخر شعرةٍ من رأسي:

- حسنا..

في هذا الموعد من العلاج كانت الطبيبة بيال معي، قصّتْ لي قصةَ ابنتها، حزنتُ جداً لما أصابها فقد كانت صغيرةً على الموت لتعذّبَ به؛ الموت الذي أعتقد أنه نجاتي!

غفوتُ بعد العلاج قليلاً فصحوتُ ورأيتُ الطبيبة بيال تتسلَّلُ إلى رسالتي لتقرأ ما أكتبُ لكِ.. لا أعلمُ لماذا أثار ذلك تطفُّلَها، لكني كنتُ حقاً سعيدةً مِن فِعلها هذا، شعرتُ أن هناك من يقرأ لي، ويسمعني.. اهتممتُ بالكلماتِ التاليةِ لأجلها، أخاف أني لم أعد أكتبُ لكِ بل لها، لمحتُ طرف دمعتها تُحاول السقوط فتنقذها مسرعةً بسبابةِ يدها اليمنى.. أأمسكت حروف هذه الرسالة بها وَتَرَاً أعادها إلى الماضي لتدمع هكذا؟! أم أنني سأحرقها كما فعلتُ بكِ؟ للحظةٍ أفكر ماذا كتبتُ، لِـمَ أمطرت عيناها البن على سكر خديها؟ لِـمَ الكلُّ يرافقهم الحزن عند مرافقتهم إياي؟! أيعقل أن أكون أنا الحزن؟!

شَعَرَتْ بحركتي؛ كنتُ أدّعي الاستيقاظ علِّي أنقذ جفنيها من الغرق فقد بكت كثيراً.. أعادت رسائلي كطائرٍ يخاف أن يعلم المرسل أنه قرأ ما يخص المستقبِل.. فأجزمتُ وقتذاك إلى الآن ثم الغد سأكتب لكِ ولها علّ الرياح تُرسلكِ إليّ أو تفعل ذلك بابنتها..

"ظننتُ أنّ عهد لن تكتشف فعلتي هذه، لكنها فعلت! أخبرتُكِ أنّ ابنتك ذكية يا عزة.. لا تقلقي؛ سأعتني بها كما تفعلين مع ابنتي، ستكون عهد بخير.."

بيال

****

جرعات الأمل التي تقاتل الألم بداخلي لم تجد ساحةَ حربٍ أفضلَ من جسدي، نشرت الرعب وأصابني الذعر، وجعلتني يتيمةً مني، جففت العروق، أصبحتُ قاحلة الروح والجسد، يملؤني الصبار، كأنما نبتت بي صحاري..

****

(٢١)

الهندوسية!

****

(منزل الطبيب رحيم خان)

أذان الفجر الأول.. مع كلمات "الصلاة خيرٌ من النوم، الصلاة خيرٌ من النوم"، إنّه بكلِّ حبٍّ جعل لنا أوقاتاً نمضي فيها إليه، الله يُذكرنا يا أمي أينما ذهبنا؛ هو معنا دوماً..

استيقظتُ لأتجهز للصلاة في إحدى الغرف التي أعطتني إياها الطبيبة بيال، غرفةٌ في الطابق العلوي من ذلك المنزل الشبيه بقصرِ ياسمين ابنة السلطان التي أخبرني عنها الطبيب رحيم، بها نافذةٌ كبيرة تتجه مباشرةً إلى الشمس فاتحةً ذِراعيها كأمٍّ تنتظر تعثُّرَ ابنَها لتحتضنه، يسكنها الظلام في ساعات الفجر الأولى عدا ثغراتٍ من الضوء ما أرى به خطوات سيري، رأيت من شقّ الباب الطبيبة بيال تتلو آياتٍ لم يسبق لمسمعي تناولها، لم أفهم ما تتمتم به حقاً؛ في الغالب كانت تتحدث معي العربية على الرغم من أنها هندية الأصل عن والدين هنديّين، تابعت سيري إلى الحمّام بالغرفة التي أمكث بها للوضوء، تُرى ما الذي تفعله الطبيبة بيال أمام ذلك التمثال الصغير ذي الأربعة أذرع؟!

أتممتُ صلاتي بالسلامِ يميناً ويساراً، فسمعت صوتاً حنوناً قادماً من الباب.. لقد أدمنتُ صوته يا أمي؛ إنّه حنونٌ جداً كما لو أنه من أنجبني..

- تقبل الله عهد.
- منا ومنكم صالح الأعمال طبيب رحيم.
- أخبرت بيال أن توقظك من النوم لصلاة الفجر؛ قالت أنها ستفعل حالما تنتهي من عبادتها أولاً.. أعتقد أنكِ لا تحتاجين أحداً ليذكّرك بمواعيد صلاتك..

ابتسمتُ له بارتياح:

- في الواقع صحوت مع الأذان الذي رفعه إمامُ المسجد المجاور لمنزلكم.
- أحسنتِ صغيرتي، أحسنتِ.. هل تريدين شيئاً قبل أن أذهب؟ سأنام قليلاً إلى حينِ بزوغِ الشمس، وبعدها سأذهب للمستشفى.

أخفضتُ رأسي شاردةً في التفكير، هل أسأله عن ماهيةِ فعل الطبيبة بيال أم ألتزم الصمت؟!

- عهد أتوقع أن لديكِ الكثيرَ من الكلام، ويبدو أن التردد يعلو ملامحكِ.
- حقيقةً لديّ سؤالٌ لا أعرف إن كان هذا تَطَفُّلاً على حياتك طبيب رحيم.
- عهد أنا هنا بمثابة والدكِ؛ أخبريني بكلّ ما تريدين قوله، وأي سؤال أيضاً..

كان الطبيب رحيم خان مسلماً وكنا نقضي غالبية وقتنا نراجع آيات الله معاً، صوته رائع في تلاوة القرآن الكريم؛ صوته أشبه بخريرِ النهر الهادئ، بزقزقة عصافير الخامسةِ فجراً حتى أن بيال يُثار فضولها وتتنغم وتخشع وتدمع عيناها عندما تسمعنا نراجع آيات الله.

- ماذا تفعل الطبيبة بيال عند ذلك التمثال؟
- همم.. عرفت إذاً ما يثير فضولك يا عهد، إنها عبادة بيال.
- نعم.. بالفعل.
- يبدو أنّكِ فتاةٌ لا تسمح للأشياء أن تمر أمامها دون معرفةِ ماهيتها بالضبط..

جلس قبالة سجادتي مسنداً ظهره على الحائط ليخبرني عن ديانة الطبيبة بيال:

- عهد؛ هذه الديانة تسمى بالديانة الهندوسية.
- هندوسية؟
- نعم، وهي ثالث أكبر ديانة في العالم بعد الإسلام والمسيحية، ويوجد قرابة المليار نسمة يتبعونها حول العالم منهم ثمانمائة وتسعون مليون نسمةً يعيشون في الهند.

أكمل حديثه بينما بقيتُ مصغيةً له:

- أيضاً يطلق عليها الديانة البراهيمية.
- هل لها نبي أو رسول كما محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإسلام؟!

- هذه الديانة ليس لها نبي أو رسول، وكل ما في الأمر أنها تكونت من مجموعة من العقائد والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرةٍ طويلةٍ من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر.

أكمل:

- إنه لا يوجد لها مؤسس معين تنتسب إليه شخصياً، كما الديانة البوذية التي قرأت كتاباً عنها ذات يوم يشير أن مؤسسها العالم بوذا.. في الواقع أحد أصولها المباشرة هي ديانة فيدا التاريخية، حيث أنها تعتبر أقدم ديانة.. وكما أن للإسلام القرآن يُتلى، ولليهودية الكُتب المقدسة التي تلحّن ترانيمه، فللهندوسية كتبٌ دينية مقدسة، حيث أن التصنيفات المنهجية للنصوص الهندوسية هي النصوص الشروتية (الالهام)، والنصوص السيرستية (المحفوظ)، وتناقش هذه النصوص اللاهوت، الفلسفة، الأساطير، وطقوس بناء المعابد الخاصة بهم، والأكثر غرابةً في الديانة الهندوسية أن لديهم آلاف النصوص التي يعتقدون بها وتسيّر لهم حياتهم، وأحد أعظم النصوص هي الفيدا الاوبانيتاد، البورانات رامايانا، البهاغا فادغيتا، وأخيرا الآجاما..

هناك أكثر من ثلاثمائةٍ وثلاثين مليون إلهٍ للهندوس؛ عدد خيالي من الآلهةِ عكسنا تماماً، فنحن نوحّد الله لا إله إلا هو لا ثاني له جل جلاله.. الهندوس يقدسون شخصياتٍ دنيويةً مثل (شيفا) و(فيشنو)، يعتقدون أن كلَّ إلهٍ هو تجسيد جزئي للإله الواحد! ليس هذا فحسب؛ إلههم مرئي وله شكل غريب، كان ينتابني الخوف حين كنت أحضر مع الطبيبة بيال طقوس عبادتها؛ فهو يمتلك الكثير من الأعضاء ككثرةِ الأذرع، إنهم يتمثلون بها على نحو غامض كدليلٍ على القدرة الخارقة في العلم والجنس والقوة!

ثم أثار فضولي الكمّ الهائل من الآلهة التي يعتقدون بها، فأسكن تساؤلي جوابٌ بذكر بعضها، أخبرني أن براهما يمتلك أربعة وجوه، راما يمتلك ألف عين، وكارتيكا ستة أقنعة، وكل إله عندهم يمتلك أربعة أذرع..

وكما أن أطول السور في القرآن هي سورة البقرة، والتي عدد آياتها مائتان وستة وثمانون آية؛ ففي اليهودية ترانيم الزميروت، الهندوسية أيضا تمتلك المهابهارات؛ وهي قصيدة ترسخ مبادئ الهندوسية وتعتبر أطول قصيدة في التاريخ إذ أنها تتكون من مليون وثمانمائة ألف كلمة..

لديهم اعتقادٌ عرفته حديثاً أن آلهتهم قد حلّت في إنسان اسمه **كرشنا** وهم يتحدثون عن **كرشنا** كما يتحدث النصارى عن المسيح.. ما سمعته أنهم يقدسون الحيوانات حيث أنها تعتبر أيضاً آلهة بالنسبة لهم؛ اعتقدت أنهم نباتيون لا يأكلون اللحوم إذ كيف لهم أن يأكلوا آلهتهم! تذكرتُ حينها في إحدى الدروس الإسلامية حين ذكرتْ لنا المعلمة عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين من بين الأربعة (أبي بكر – عمر بن الخطاب – عثمان بن عفان – علي بن أبي طالب) أنه بعد إسلامه استعجب لفعلتهم كيف أنهم يصنعون آلهتهم من التمر ويأكلونها حينما يجوعون.. اتضح لي بعد ذلك من حديث الطبيب رحيم أنه ليس كل الهندوس نباتيون، ولم يقف هنا فحسب؛ أتعلمين أن لهم معبداً كبيراً يتضرعون له كما لأبي وللطبيب رحيم ولي (لنا نحن المسلمون) الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، ولكِ الحج إلى أورشيلم القدس عند حائط المبكى، أيضاً للطبيبة بيال أكبر معبد لكنه لا يوجد في الهند بل في أنغكور في كامبوديا.. هم لا يعبدون الأصنام كما في عصر الجاهلية في مكة قبل البعثة المحمدية، لكن الحقيقة أن الهندوس يرون الله في كل شيء، وكل شيءٍ هو تجسيدٌ لجزءٍ من روح الله عز وجل.. هم لا يعبدون البقر كما يعتقد العالم العربي وأغلبية العالم الأجنبي؛ وهذا اعتقاد خاطئ ويرجع ذلك لطريقة تعامل الهندوس مع البقر، لكن في الواقع البقر بالنسبة لهم كائن يعطي أكثر مما يأخذ.

قطع حديثنا ودهشتي المستمرة لهذه الديانة، شعاع الشمس المتسلل من شرفة غرفتي ساقطةً على عدسة الطبيب رحيم ضاربةً بانعكاسها مباشرةً لُمقلتي

– عهد.. لقد بعثت الشمس خصلاتها الذهبية؛ يجب أن أذهب إلى المستشفى.

هززتُ رأسي موافقةً لكلامه فذهب خارجاً من غرفتي وذهبتُ ناحيةَ سريري أرتِّبَه، اليوم هو اليوم المنتظر لبعضٍ من الأكلات اليمنية كمفاجأةٍ للطبيب رحيم وزوجته الطبيبة بيال.. خرجتُ من غرفتي متجهةً إلى المطبخ الذي يقع في الطابق السفلي للمنزل، وأثناء مروري بجانب غرفة الطبيبة بيال رأيتها تضع شيئاً أحمر اللون على جبينها! لفتَ ذلك انتباهي، لَمَحَتْ خطواتي نحو المطبخ ورأسي يتناول مائة سؤال عن تلك النقطة الحمراء الذي وضعته على جبينها..

- عهد؛ أنتِ هنا؟

- نعم خالة بيال أنا هنا.. سأذهب إلى المطبخ؛ أتريدين أن أحضر لكِ شيئاً؟!

- عهد تعالي.. أعلم أن هناك الكثير مما يثير تعجبك لما ترينه في المنزل..

- خالة بيال أعتذر على شعوركِ بعدم الارتياح لتساؤلاتي.

- لا عليكِ صغيرتي.. أيّ سؤال تريدين إجابته فقط أخبريني.

نظرتُ مباشرةً إلى النقطة الحمراء التي تزيّن جبينها.. أمسكتها مبتسمة..

- هذه إذاً! عهد؛ هذه النقطة الحمراء تسمى (بيندي)، تضعها المرأة الهندوسية دليل على أنها متزوجة، وما أن تفقد زوجها حتى تضع ذات النقطة ولكن باللون الأسود، سأذهب الآن ونكمل حديثنا مساءاً..

متجهةً إلى الباب نادتني:

- عهد؛ أنا أتشوق لتناول طبخاتكِ هذا المساء؛ المنزل والمطبخ تحت أمركِ..

عادت إليّ وطبعت قُبلَةً على جبيني ثم ذهبت..

أنا فتاةٌ دون أم، وهي أمٌّ دون طفل، ما زلتُ لا أفهم ماذا يحدث هنا وما هذا العالم الغريب المليء بتوحد الشعور الذي يسكنهُ الفراغ..

أمي.. كلما أردتُ الإمساك بيديكِ تموهين كسراب طيف، ولم يتبقَّ منك سوى اللا شيء الذي بات يسكنني..

أعددتُ الوجبات تلك الليلة بوصفاتٍ يمينةٍ تقليديةٍ كنتُ قد تعلمتها من ماما عطر في مصر حيث أن العمّ خالد لا يُحب سوى الوجبات اليمنية حتى عندما مكثا في منزلنا إلى حين عثورهما على منزلٍ قريبٍ من الحيّ الذي نسكنه..

لقد أحبّ الطبيب رحيم وزوجته ما أعددتُ، بعد ذلك المساء المشبع بحنان أسرة متكاملة من أب، أم، وطفلة! حضرنا فيلماً لنجم هوليوود (أميتاب باتشان)، ثم خلدنا للنوم جميعاً. للمرة الأولى أشعر وكأن لي أسرةً كبقية أولاد الأحياء المجاورة، سواءً بقريتي اليمنية أو أثناء دراستي في مصر.

****

(٢٢)

احتلال الوزير، سرطنني حتى أبقى بي اثنين وعشرين حرفاً لتصفني، أكِلَت نقاط بعضها وكُسِرَت عصوات بعضها الآخر!

****

(مستشفى القاهرة – مصر)

- عطر.. أين عهد؟!

- عهد في غرفة الفحص العام يا خالد.. منذ ساعة لم ينتهوا من فحص الدم الذي تكرر فحصه أكثر من مرة؛ لا أعلم ما سبب قلق الأطباء..

صرخ أبي خائفاً:

- ماذا تقصدين بقلق الأطباء؟! ما بها عهد؟!

أجابت واضعةً كفيها على وجهها باكيةً:

- لا أعلم.. لا أعلم.

خرج الطبيب إلى عند أبي والعم خالد وماما عطر:

- هل أنتم أقرباء عهد؟

- نعم؛ أنا والدها.. أين هي عهد؟! ماذا حدث لها؟!

- لابد لنا من التحدث قليلاً في مكتبي؛ تعالوا.. في الواقع لديّ خبران عن عهد؛ واحد سيء والآخر يمكنه معالجة ذلك السوء.

- ما هما؟! أكاد أفقد صوابي؛ أريد معرفة ما بها عهد..

- عهد مصابة بالتهاباتٍ حادّةٍ في الدم؛ ويجب معالجته سريعاً مالم سيتحول إلى سرطان نقياني.

العم خالد سائلاً الطبيب:

- أتمزح؟!
- لم أخبركم بالنتيجة إلا بعد الفحص الخامس لدمِها.
- ما السبب؟! سأُجَنّ.. لم يكن بها شيء البارحة، ماذا حدث فجأة؟!
- قبل أن أخبرك عن الأسباب والفحوصات وما إلى ذلك؛ أود أن أطمئنك أن لهذا المرض علاج، ولابد لك من الاهتمام قبل تفاقم الأمر.

أبي بنبرة مكسورة:

- حسناً؛ المهم أن ملاكي الصغير تعود، لم يتبقَّ لي من عزة غيرها.
- بعد إجراء الكثير من فحوصات الدم؛ اتضح أنها تعرضت لالتهاباتٍ طفيفة لا تكاد تُذكَر، ومع تراكم الأمر خلال الأيام السابقة تحول إلى التهاب حاد..
- والعلاج؟
- سأصف لها بعض الأدوية لتأخذها بانتظام إلى أن تنتهي من الجرعة كاملة.
- لا بأس؛ سأهتمّ بها بنفسي، متى نستطيع إخراجها من هنا؟!
- إنها تحتاج لأسبوعٍ تحت المراقبة خوفاً من حدوث أشياء مفاجئة.
- حسناً..

سيناريو الأطباء المعروف بالكلام المطمئن لعائلة المريض يتكرر على الدوام في جميع أزقة العالم، لو أنهم فقط يتحلّون بمصداقيةِ بَشَريّتهم ويتركون القوى الخارقة جانباً ليتربّع إيمانُ الموت بحجرات القلب دون المعاناة من الفقد..

بعد مضي أسبوعٍ خرجتُ من المستشفى؛ كان بابا وماما عطر والعم خالد يعتنون بي جيداً، لم أشعر لحظةً أنّي بمفردي لا سيما أن ماما عطر كانت تهتم بي وابنها بدر كان يبلغ من عمره عاماً، كانت تمكث كثيراً في غرفتي، لقد أحبتني كما فعلت معكِ تماماً..

- حمداً لله على سلامتك صغيرتي..
- شكراً ماما؛ لكن ماذا حدث؟!

- لا شيء.. فقط إرهاقٌ بسيط وعليك أن ترتاحي لتعودي أفضل.

صوت أبي من باب الغرفة:

- عهد..

- نعم بابا..

- كيف أصبحتِ الآن؟

- الحمد لله؛ أفضل.. رأسي فقط يؤلمني قليلاً.

- سأذهب مع عمك خالد إلى العمل، وماما عطر ستبقى معكِ هذا النهار.

- والمدرسة؟!

- لا تقلقي، أخذت لكِ إجازةً مرضية من الناظرة مِرفَت.

كانت إجازةً أبديّة؛ إجازة من المدرسة، وحظر عام من الحياة، انشقاق من عيش الواقع إلى حلمِ عيشِه، اضطراب داخلي وآثار جروح غير نازفة، اشتياقٌ وإشفاق، سقوطٌ وهروب، صناعة أكاذيب للاستمرار، وكارثة تجوب أرجائي..

****

(٢٣)

القدس وأنا؛ نرثي ما بقي فينا من حياةٍ كما لو أننا نعلم النهاية!

****

(١٩٨٧م، مقر العمل- مكتب أبي)

عاد أبي والعم خالد للعمل بعد خروجي من المستشفى بعد انقطاعٍ دام أسبوعاً كاملاً اطمأنّا فيه على صحتي:

- عمر؛ هل شاهدت أخبار الأمس؟
- لا أرغب بمتابعة شيء.. دعني وشأني.
- عمر؛ أعلم أنك قلق على عهد، لكن لا تقتل نفسك بهذه الطريقة؛ ارجع إلى حياتك الطبيعية، ليس لأجلك؛ بل من أجل عهد حتى لا تشعر بما يجري حولها أو تعلم بمرضها فتزداد حالتها سوءاً.
- معك حق.. ما يُهَبِّطُ من مرض عهد هو تحسُّن حالتها النفسية.
- أتريد الآن معرفة أخبار الأمس؟
- ماذا حدث؟
- فلسطين تبدأ انتفاضتها ضد الصهاينة، وجماعة الإخوان المسلمين في قطاع غزة تؤسس حركة المقاومة الإسلامية (حماس) التي تتبنى سبيل العنف ضد إسرائيل.
- حقاً؟! إذاً فكرة الانتفاضة التي وضعناها أتت بنتيجة.
- نعم.. وأيضا أطلق عليها مسمى أطفال الحجارة.
- نصرك الله يا فلسطين، وتعودين طاهرةً كما كنتِ في عهدِ صلاح الدين الأيوبي، فنحنُ ننتظر أيّوبياً آخر يُبعَث لتحريرك.

****

(٢٤)

مرحباً! أنا بيال..

****

(الهولي؛ مهرجان الألوان- الهند)

مهرجانٌ شعبي تحتفل به الديانة الهندوسية في الربيع، ويسمى أيضاً بمهرجان (دولياترا) أو (باساتنا) أو (تساب).. يُقام في الهند ما بين فترة نهاية شهر فبراير وبداية شهر مارس حيث أنه يعتبر أساساً احتفالاً بموسم الحصاد، خصوبة الأرض، وداع فصل الشتاء، واستقبال فصل الربيع؛ غير أن له جذور دينية.. أما صناعة الألوان فتكون من المواد الطبيعية وبعض الأعشاب الطبية المذكورة في (الايورفيدا) أحد الكتب المقدسة للديانة الهندوسية.

كانت عهد تائهة وعلامة التعجب تجوب رأسها بالكثير من الأسئلة لِما يدور حولها من تحضيرات احتفال ذلك المهرجان، اكتفت بالنظر والتأمّل إلى جميع الأشخاص والتجهيزات والزينة وثيابنا البيضاء دون النطق بكلمة واحدة حتى كسر سر تساؤلاتها رحيم:

- عهد؛ ما بكِ؟ لِمَ كل هذا الذهول المُتخم بالصمت؟!
- لا شيء..
- لا شيء! لا يبدو عليك الارتياح؛ ملامحكِ تقول هذا.
- ماذا يحدث هنا؟ من سيتزوج؟
- لن يتزوج أحد يا عهد؛ إنه عيد الهولي.
- ماذا؟ ما هذا العيد؟!
- عيد الألوان؛ لإحدى الأديان الهندوسية، أتودين الاحتفال معنا؟
- لكنكَ وأنا مسلمين!
- لا بأس أن نشارك الأديان الأخرى أعيادهم.

- حقا؟! وهل يشاركوننا أعيادنا؟
- ليس الكثير منهم يشاركوننا، وليس الكثير منا يشاركهم.
- طبيب رحيم؛ احتفل بهذا العيد معهم، سأذهب لغرفتي؛ أشعر وكأنّي لستُ على ما يرام.
- أأنتِ بخير؟!
- لا أعلم؛ أعتقد أنه إرهاق ليس إلا.
- حسناً.. إن أردتِ شيئاً فسأكون في المنزل؛ لن أذهب إلى المستشفى اليوم.
- شكراً لك بابا!

****

يوم عهد الأخير في منزلي، أقحلت أرضي بعد حصد هذا الربيع قبل زراعته.. احتفال توديع البرد والقسوة، وزراعة الحب، إلا أن عيدي هذا تصحّر، لم يكن هناك ربيع منذ خروجها الأخير، أُغمقت الألوان حتى باتت جميعها باللون الأسود، قرقعة الدرجات نزولاً وصعوداً تجمدت، ورائحة أكلاتها اليمنية تلاشت؛ لم يبقَ منها سوى رائحتها الملتصقة بأواني الطبخ وملاعقها وأطباقها..

أردتُ النوم على فراشها، أردتُ ضمَّ ما تبقى من رائحة عهد، استفرغني سريرها، أبتْ وسادتها احتضاني، وشرفتها بصقت رشفات النسيم إلى الداخل، حتى معبدي أمسى حزيناً على غير عادته!

قالت بابا.. شعور الأبوة التي حُرمنا منها تعود مجدداً بعهد، فمن سيعيدها إن رحلتْ؟! ها أنا والقدر كل يوم في نزال جديد، يريد أخذها كما أخذ الأولى..

في عيد زواجي الثاني لم نحتفل خارج المنزل كما الأول، كان هناك حفلة بسيطة داخل المنزل في ساحة الاحتفال تحديداً.. كان يوماً رائعاً إلى أن حدث ذلك الانفجار المتسبب فيه سقوط شمعة على سجادة غرفة بارفاتي ابنتي، احترقت الغرفة وابنتي وهي بعمر ستة أشهر ولم أستطع إنقاذها، حاولت وحاولت لكني فشلت.. أنا أمٌ فاشلة يا عزة؛ لم أستطع الاعتناء

ببارو ابنتي، لم يعد بقدرتي الفقد مرة أخرى.. لستُ قويةً كعهد؛ تقفد أهلاً وراء أهل، فقدتك ثم أهل أبيها في القرية ثم أباها..

ماذا حدث يا عهد؟ ماذا حدث؟! ألم تقولي أنكِ الأقوى؟! لمَ أنتِ نائمة منذ عدة أيام؟ أما تشتاقين؟! أم مات الاشتياق بكِ أيضاً؟! كوني بخير عزيزتي؛ سأتحمل غيابكِ لبضعة أيام أخرى، يجب عليكِ ألا تنامي كثيراً..

- رحيم؛ أين عهد؟
- إنها متعبة قليلاً، ذهبت لترتاح..
- كيف تتركها بمفردها؟!
- بيال؛ ستكون على ما يرام، لا داعي للقلق.
- أنتم الرجال غير صالحين لشيء.
- يسعدني أنكِ تُحبينها.
- مجنون؟! سأذهب لإحضارها.
- لا تتأخري أريد تلوين وجه القمر..

كنتُ في طريقي إليكِ؛ لمَ لمْ تنتظري؟! فقد صنعت شجاراً مع رحيم لأجلكِ، وتركتُ عيدي يا عيدي، ألم يناسبكِ حبي؟ أقسوتُ عليكِ يوماً لتعاقبيني؟

عزة؛ زوري أحلام عهد وأخبريها أني أحبها كأنتِ، استرقي لها النجاة من السحاب بجانبكِ، لا تأخذيها إليكِ، اعتني بابنتي عندكِ واتركي ابنتكِ لأعتني بها..

صرختُ حتى تفجّرَتْ حنجرتي، تقطعت أوتاري التي تحبها عهد حين أدندن لها، ماذا يحدث؟ لمَ لا يسمعني أحد؟ هل صوتي لم يُسمع؟ أم أنه تعمد إحداث انفجار ذاتي فقط؟

- عهد؟! عهد؟! أفيقي يا عهد، أنا هنا ماما بيال.. ماذا حدث لكِ؟

لا حركة.. جمود اجتاحها وشَكّل قُطباً جليدياً بها..

- رحيم! أين أنت؟

- أهذا صوت بيال؟ عهد.. ماذا حدث لعهد؟ يا الله رحمتك!

ببكاءٌ يكاد يشقُ صدري نصفين..

- رحيم؛ لا أعلم ماذا حدث لعهد..

- لا تقلقي ستكون بخير، لنأخذها إلى المستشفى حالاً.

- هيا..

****

تبقى لعيد كارفا شوت شهران؛ أتمنى أن تكون عهد معنا، الغربال لن يوجه إلى قمر ورحيم بل إلى عهد ورحيم.. سأنتظرها.. سأنتظرها..

- ماذا حدث طبيب رحيم؟

- طبيب سام؛ لقد تعبتْ عهد كثيراً.

- لا تقلق؛ سأفعل كل ما بوسعي.

- سأكون معك.

- لا بأس هيا.

تعرضتْ عهد لفقدان وعيٍ مؤقّت، بقيت ما يقارب سبعة أيام فاقدةً للوعي تماماً، فأشرق اليوم الثامن بوجهها الحسن..

****

(٢٥)

أما حان الوقت بعد لكتابة ردٍّ على رسائلي؟!

****

(١٩٨٨م أمام تلفاز منزلنا؛ أبي، العم خالد، ماما عطر، وأنا)

- تقارير عن قصف طائرات عراقية بلدة حلبجة الكردية بالأسلحة الكيماوية.
- الأردن يتنازل رسمياً عن مطالبته بالضفّة الغربية لمنظمة التحرير الفلسطينية، والمجلس الوطني الفلسطيني يعلن في اجتماعٍ في الجزائر قيام دولة فلسطين..

نظر أبي إلى العم خالد مندهشاً لما يحدث:

- ما من مستجدات في الخليج العربي، وما هي صحة هذه الأخبار؟ ولماذا اليمن يسكنها هذا الهدوء اللا مألوف؟ الوضع أصبح يُخاف منه!
- لا تفكر كثيراً يا عمر فهذا هو جشع الحكام، فمنهم الصالح ومنهم الطالح..
- بأيّ وجه سنقابل الله؟!
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- سأذهب لأنام يا خالد؛ أتريد شيئاً؟
- فقط كن قوياً، ولا تنسَ غداً موعد مراجعة طبيب عهد لنرى آخر الفحوص.
- إن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام.
- سيكون يا عمر؛ سيكون فأنا معك، والله معنا..
- عهد؛ هيا لتنامي أنتِ أيضاً.
- بابا سأنام بعد قليل، فقط أكمل حديثي مع ماما عطر.
- عطر لا تتركيها تتأخر عن النوم، سنذهب للمستشفى صباحاً ويجب أن تنام جيداً.
- لا تقلق، سآخذها الآن لتنام.

أبي والقدر في صراع دائم، ففقدانه لذّة العيش منذ غيابك وحتى اللحظة جعله يبدو وكأنه كومة أحشاء تتنفس فقط بلا إحساس، ووجهه الشاحب المجعد الذي أضاف أربعين عاماً لعمره الخامسة والثلاثين، وآثار سهر الليالي الطوال وأرقها دفنت مقلتيه وكأنّ جفنيه مقبرةٌ جيّدة لهما، جمودٌ تطرّف حياته حتى بات الشتاء كل فصوله الأربعة..

لقد كنتِ الروح بحلقوم أبي فلم تنتزع روحه من أخمص أطرافه لتصاب بالبرود، فقد كنتِ أقرب؛ قريبة جداً ليجدكِ الموت ملاذه..

انتهى كل شيء قبل أن يبدأ.. يجب على الحياة أن تعود أدراجها لأعيش معكِ، أو أن تتصدق عليّ بفرصة لُقياكِ.. ميلادي الأول تجرأ على القدوم في غيابكِ، حينها تمردتْ الأيام بي وبدأت تمر وكأن شيئاً لم يكُن.. لم أكن جبانةً بيومي الأول في المدرسة؛ كنتُ أريدكِ برغبةٍ ما، ليس هناك سبب مقنع لوجودكِ، فقط أريد إطفاء شعلة الاشتياق وأن تكوني بجانبي.. لم أعد أهتم لشيء كأنما مات بي الموت وتعمق بداخلي حتى دفن.. لا تأتي الآن ولا تمسكي يدي أبداً.. أنتِ رحلتي برغبةٍ منكِ فلماذا أتمنى عودة من تركني ورحل؟!

أخبري أبي أنه لا فرق بينكما؛ فقد تركتماني هنا، وها أنا ضحية حبكما أعيش بمفردي وأنتما تعيشان معاً.. أخبري الموت أيضاً أني لم أعد أريده فلقد طال انتظاري له، خلقت له مع كل عذر من أعذراه السبعين عذرا.. دعيني وشأني، لا تزوريني فطيفكِ كابوس أحلامي الوردية، لم تكفتي بكوابيسكِ فأرسلتِ الوزير السرطان ليحيا عليّ وينتشل ما تبقّى منّي، ليتكِ لست أمي، وليت كل ما سبق من أحرف قسوةٍ تعنيك! وما قلته لكِ ليس إلا شعور الابنة تجاه والدتها المفقودة.. وإني بدون حولٍ مني ولا قوةٍ أشتاقُكِ بكل ما فيَّ..

****

صباح اليوم التالي.. موعد مراجعة الطبيب على أمل أني شُفيت، موعد تَركِ الدواء والعودة إلى المدرسة؛ إلى سالي وسيلا أيضاً.. لم أكن أعلم أنه موعد الوداع، موعد ذهابٍ دون إياب، وتذكرة السفر من روحي والعناء بصوت أبي الذي أفتقده..

- عهد؛ استيقظي هيا، علينا زيارة الطبيب لتكفّي عن تناول الدواء.
- حقاً؟! سأتوقف عن تناوله؟
- إن شاء الله يا ملاكي الصغير.
- دقائق فقط وسأكون جاهزة.
- لا تتأخري، سأنتظركِ في المطبخ لتتناول الفطور.
- حسناً..

غادرتُ فراشي بمفردي للمرة الأخيرة..

غسلتُ وجهي فكانت الأجواء باردة فقفزت لأصل لمعطفي المعلق، ارتديت ملابسي بمفردي للمرة الأخيرة، تناولتُ فطوري الذي أحبه؛ شطيرة الجبنة السائلة مع الحليب كثير السكر للمرة الأخيرة عقدتُ خيوط حذائي المفضل وركضتُ إلى السيارة للمرة الأخيرة، وهي الأخيرة التي ركضتُ فيها.. تحدثتُ كثيراً خلال فترة ذهابنا كما لم يسبق أن تحدثتُ من قبل؛ شعرتُ بالحياة لأول مرة فأبتْ إلا أن تكون الأخيرة!

أوقف أبي السيارة، تقدّمت خطواتنا داخل المستشفى لمراجعة الطبيب بعد انتهائي من الجرعة اللازمة آملةً أن لا يَخطّ لي أخريات، وحدث ما لا يرغبه أحد، فقد صُدِمَ أبي بالخبر وأتى العم خالد وماما عطر وفوجئا بتلك الكلمات التي تناولتها مسامعهما من الطبيب:

- هذه نتائج الفحص الأخيرة لعهد.
- وما أخبارها؟!
- عمر.. في الحقيقة حدث ما كنا نخافه، فقد تحولت التهابات الدم بها لسرطان (لوكيميا)، لا تقلق يمكننا تلافي الأمر..
- ماذا تقول؟! لقد حرصتُ على أن تأخذ أدويتها في مواعيدها..
- أعلم أنك حريص جداً على ابنتك، لكن هذا قضاءٌ وقدر، تذكر أَنَّهُ لا يأس مع الحياة، وعهد فتاة قوية ولا يزال المرض في بادئه.

- ما العمل الآن؟
- سأجري لها عملية نقل دم، أي أني سأقوم باستبدال دمها بالكامل علّ هذا يُضعِف السرطان ويمنعه من الانتشار، أو علّنا نستأصله بهذه الطريقة.
- متى ستجريها؟
- فوراً إن أردت.
- قم بعملك أيها الطبيب.

****

(٢٦)

سرطان في غصن شجرة

****

صباح الخير بالوجه الحسن..

صباح الخير لأول أيام العيد بعد صيام عينيكِ عن الضوء لسبعةِ أيام..

صباح الخير ليومنا الثامن، ولسعادتنا الأولى والأخيرة..

وهو يرفع ستار الغرفة التي بها عهد مكملاً:

- أهذا عقابُكِ لنا يا عهد؟ ألم تجدي عقاباً أخفَّ منه؟!

عِتابٌ يلامس قلبها الرقيق، والسعادة تغمر رحيم لعودة عهد من جديد، الذي لم يرَ النهار وجماله من بعد حادثة بارو إلا حين ظهرت عهد، معتبراً إياها هدية السماء جبراً لكيانه المتهدم منذ سنوات بِعاد.. ابتسامته لم تغادر ثغره يوماً بوجود عهد، كأنها تشد خدّيه إلى الأعلى لتجعله ضاحكاً بشوشاً.. يا لها من فتاة! كيف فعلت ما فعلت به؟! ولم أستطع فعله في عمري السابق معه، ويا لرحيم من أبٍ عظيم.. عائلتي اكتملت؛ أتمنى ألا يصيبها مكروه..

تحسنت حالة عهد بشكل ملحوظ، لم أصدق ما حدث وكيف نجت من كل هذا.. لا زال العلاج الكيميائي يزورها ويأبى تركها، وما زالت عهد تستقبله مبتسمةً كما لو أنه رفيقها المعتاد الذي تثق به، أتُلام على اتخاذهِ صديقاً؟! لا أعتقد أنها ستُلام أبداً فهو صديقٌ وفيٌّ لها ولا يتأخر عن مواعيده.. أما بالنسبة لليأس فهو يعود متسللاً إليها ليلاً بكلِّ شغف ليوقع بها في شباكهِ، يخافُ أن تراه صباحاً فهو يعلم أنها ستقضي عليه، وها هو يبدي ذكاءه فيختار سكون ليلها ليُثير به الضجيج من حنينٍ وألمٍ ورغبةٍ في الرحيل..

تركت قلمها لي، وتلك الأوراق لم تعد تتحمل ما بها من عتب، اختفت سطورها على استحياء وغادرت مواضعها فبدت الصفحات صمّاء، ما إن يقف القلم عليها حتى يتوه هو الآخر، فينظر إلى عهد، ماذا أفعل فأنا لا أجد طريقي هنا؟! لا ابتسامتها المتعبة تجيب ولا أنا أجدني أيضاً.. حاولت أن أُعيدها إلى عالمها المشتاق، لكن دونما فائدة.. تجمدت الحروف، لم تعد تنطق أو تتحرك حتى تساقطت النقاط من أعلاها وأفلتت السُفلى تمسكها، ضُمَّت الفتحات، وسقطت العصوات، نامت النبرات واعتذرت الهمزات، أسماء الإشارة لم تعد تشير إليها، والموصولة منها قطعت رحمها، تبقت حروف الجر تواسي جِرار كيماويتها..

- عهد ما بكِ؟! لِمَ توقفتِ عن الكتابة؟!
- لقد أَرهَقتُ الكلمات والقلم فتركتها قبل أن تُصاب بعشق الوزير.
- لن تُصاب.. حرريها من قبضتكِ.
- أحررها لتبقى وحيدة هناك كما أنا هنا؟ دعيها سجينةً بي؛ سآخذها معي، لن أتركها كما فعل معي جميعُهُم.. طبيبة بيال!
- تحدثي؛ إني أصغي إليكِ..
- هل سأموت؟!
- لتعلمي جيداً يا عهد أن الموت هو المصير المحتوم لنا.. لكنك استثناء عنا، أتعلمين لماذا؟
- لا..
- أنتِ صديقة تلك الورقة هناك، وما أن تسقط فستسقطين، لكنها لن تفعل، تأكدي أنها لن تفعل..
- هي لن تفعل، لكني لا أثق أني لن أفعلها..
- سأخبركِ قصة هذه الورقة لتتأكدي أنكِ أيضاً لن تسقطي.. بدأت القصة عن فتى كان يُدعى رانبير إنهُ يصغُركِ فقد كان في العاشرة من عمره، ومن هنا حيث مكانكِ تماماً كان

ينتظر رحيل الوزير السرطان منه، فقد كان يطلق عليه اسم "ذات الرداء الأحمر" نسبةً لقصة ليلى والذئب، أأقَصُصْها لك؟!

- أعرفها.. لقد قصّها لي الطبيب رحيم.

- جيد إذاً، كان ينعتْ مرضهُ بذاتِ الرداء الأحمر، تعجبتُ كثيراً لِـمَ كان يطلق على السرطان هذا الاسم! وحين سألتهُ أجابني: لم نترك للذئبِ فرصةً لنعرف لماذا أكل جدةَ ذاتِ الرداء الأحمر، ولمَ احتال على سلتها؛ لكننا تعاطفنا معها فقد سبقت بكاء الذئب، فلو كان الذئب مكتفياً وهناك من يهتم به لما فعل فعلته.. سألته ماذا تقصد؟! قال: أقصد أن السرطان احتلّ جسدي لأنه لم يجدْ من يعتني به، وها هو يقاوم كل تلك الأدوية دفاعاً عن مسكنه بداخلي.. وأصبح يسبقني بالبكاء.. حينها سمع رحيم خان حديثي معه وقرر أن يبني ما تبقى منه بعد أن أكل اليأس روحه، فغرس تلك الشجرة أمام النافذة مباشرةً وأخبرهُ أنتَ والشجرة الآن أصدقاء؛ هي لن تسقط فأنت صديقها المفضل، وأنت أيضاً لن تسقط لأنها تثق بك، وإن سقط أحدكما سيسقط الآخر.. بدأت تلك الشجرة بالنمو يوماً بعد يوم وأصبحت على ماهي عليه الآن، وأتى الربيع فجمّلها والشتاء فجمّدها، ثم الخريف فأسقطها ورقةً تلو أخرى.. بدأ الخوف يتسلل إلى رانبير ببطء، هل ستغدر الصديقة بصديقها؟! هل ستسقط تلك الورقة كما فعلت الأخريات؟! ظل يراقبها ويراقبها حتى أتى الربيع الآخر ولا تزال تتأرجح أمامه، تنظر إليه مبتسمةً، حينها تأكد رانبير أنها صديقته التي لن تسقط وستواجه ظروف الطقس كما يفعل هو مع السرطان.. شُفي رانبير وبدأ شعرهُ بالنمو، وعاد إلى منزله..

- وترك الورقة هنا؟!

- ما يزال يتفقدها من فترةٍ لأخرى، وهي لا تملُّ من انتظاره..

- لقد سبقتُ الوزير بالبكاء، أكان جائعاً يا تُرى ليلتهمني؟ أم أنني لذيذة إلى هذا الحد؟!

- حقاً أنتِ لذيذةٌ يا عهد، وسيصاب الوزير بالسكري ويرحل، ولن يعود ثانيةً لتناولكِ يا حلوتي..

حسناً، سأعترف أني كذبتُ على عهد لتنجو أو لأنجو من فقدانها، علّ قصة رانبير المُختَلَقَة تُعيدها إليّ وتنتشلها من غواصة اليأس التي تغوص بها إلى أعماق الفقد، أيضا تلك الورقة التي نصبتُها ما هي إلا مُعلّقة بخيط رفيع على غصن الشجرة.. لا أعلم من أخدع تماماً بهذه القصة؛ هل أخدع السرطان؟ أم عهد؟ أم في الواقع أخدعُني؟!

طلبت عهد أن أُطلعها على أخبار بلدها وآخر التطورات، ربما كان مقصدها أن تُطلعكِ أنتِ! دونتُ كل الأخبار تلك لكِ، حتى وأنتِ في السماء لم تقف مهنتكِ الإعلامية، أنجبتِ إعلاميةً بارعةً بالفطرة..

١٩٩٠م:

- اليمن: لا تزال هناك مفاوضة سلام واتفاقية بدايتها في القاهرة وآخرها في عدن.
- العراق يغزو الكويت، والأمم المتحدة تدين ذلك وتدعو إلى سحب كامل لقواته.
- منظمة التحرير الفلسطينية تساند خطوات العراق في ضمّ الكويت، والكويت تقطع علاقتها بالمنظمة وتطرد نحو أربعمائة ألف من الفلسطينيين المقيمين فيها.

****

(٢٧)

ثلاثة ضرب تسعة؟
سبعة وعشرون وفاةً في حياةٍ واحدة..

****

تمّت عملية نقل الدم لي، سُعِدَ أبي بخبر نجاحها لكن لابُدّ لي من البقاء تحت ملاحظة الأطباء لمدةٍ لا تقلّ عن أربعةٍ وعشرين ساعةً لترقّب ما سيحدث.. ولم يكن ما حدث شيئاً جيداً للوزير؛ فقد أعاد إنتاج جيوشٍ من مناصريه بداخلي، جيش كرار استنجد بجميع جنود شيعته فلبّوه مُنجِدين محاربين ما مكث في جسدي من دمٍ جديد، رمق بنظره على الطبيب قائلاً "ارحل وألقِ على مسامعِ أبيها أنا العاشق لفتاته وأنا الحبيب"، اختطف جسدي مني وجعل منه مسكناً، اختطفني من أبي، أيا ليته رماني عليكِ، رفض ذلك الوزير تلك الهدنات وأبى إلا أن يُغرّبني عن الجميع بكفالةٍ منه، ولن يتركني حتى أدفع قيمة كفالته.. بحثتُ عن طريقةٍ لأعود إلى نفسي، لكن الطرق مُحيت آثارها من أمامي فلم أجدني! عاد الطبيب ناقلاً ما قد حدث "يا عمر؛ إن الدم في جسد عهد قد طُرِد، لم يتبقَّ معها سوى الحلّ الأخير وهو أن تذهب إلى الهند، هناك طبيب يدعى رحيم خان سيساعدك لإجراء العملية الأخرى لها.. وهي عملية نقل جزء من نخاع العظم".

سافرتُ وأبي إلى الهند وبقي العم خالد وماما عطر في منزلنا في مصر، سكنّا بجناحِ فندق في دلهي.. وفي اليوم التالي من وصولنا أخذني أبي إلى مستشفى دلهي للأورام لإجراء الفحوصات اللازمة للعملية.. أُجريت الفحوصات اللازمة والغريبة في مسمياتها، أستعنتُ بورقةٍ دونّ أبي فيها تلك الفحوصات لأكتبها لكِ، فحوصات دم، فحص الدم الكامل (CBC)، فحص وظائف الكلى والكبد، تحديد مستوى حمض اليوريك، فحص مسحة

الدم تحت المجهر، وفحص الوراثيات الخلوية.. كتب أيضاً أنّ الذين يعانون من السرطان النقياني (اللوكيميا) لديهم كروموسوم خاص يسمى كروموسوم فيلادلفيا..

على أبي إيجاد عمل بأسرع وقت ممكن لإكمال ما تبقى من فحوصات وإجراء العملية؛ إلا أنه حدث ما لم أتوقعه، لقد رأيت في إحدى الجرائد الهندية المترجمة إلى العربية أن هناك من يبحث عن متبرع كِلى، وضع عليها دائرة، بدت لي كأنها إشارة على قرار سيتخذه، أصبتُ بالذعر؛ أما يدور في رأسي صحيح؟ هل يريد أبي أن يبيع إحدى كليتيه لأجل تكاليف العلاج؟! لم أعد قادرةً على استيعاب شيءٍ مما يحدث، اكتشف أبي تمثيلي بالقوة فهو يعلم أعراض المرض ويعلم عواقبه، اقترب ناحيتي والجريدة بيدي وعيناي لا تكفان عن البكاء، سحبها سريعاً:

- عهد! ما بكِ؟ لمَ البكاء؟
- تريد أن تبيع كليتك لسداد تكاليف العلاج؛ أليس كذلك؟
- لا.. لا أرغب في ذلك، كل ما أريده هو الحفاظ على ما تبقى من عزة بكِ.
- بابا أنا لم أعد صغيرة لتواسي وجعي بكلمتين، أخاف أن أفقدك بعد أمي..
- أنا الذي أخاف فقدانكِ يا عهد.
- لكن؟
- ليس كل ما يقوله الأطباء صحيح، ستُشفين وتعودين كما كنتِ وأفضل، الله وحده يعلم هذا..

"مطلوب! متبرع كلى بأسرع وقت ولن نختلف على المبلغ، للتواصل الرجاء الاتصال على الرقم التالي ٩٠٠٨٧***"

هذه هي الجملة التي أحاط عليها أبي بالقلم، أو ربما أحاط عليّ أنا بها.!

ذهبنا إلى المستشفى لإجراء عملية التبرع، طابقت زمرته زمرة المريضة، وقابل للمرة الأولى الطبيب رحيم خان..

- مرحباً، أأنت عمر سعيد محمد؟
- أنا هو، من أنت؟!
- الطبيب رحيم خان؛ زوج المريضة المحتاجة إلى الكلى.
- أهلاً بك، متى يمكننا إجراء العملية؟
- لِـمَ أنت على عجلة من أمرك؟!
- أتراها؟ (يشير أبي إليّ)..
- من هي؟!
- ابنتي، مريضة بالسرطان وأنا أبحث عن طبيب مناسب لنقل نخاع العظم لها..
- سرطان؟ هل تعرضت لالتهابات دم حادة؟
- نعم هذا ما حدث، لكن كيف عرفت بهذا؟ لم أخبرك بشيء..
- الآن فقط عرفتُ من تكون يا عمر، كنت تعالج ابنتك في مستشفى القاهرة بمصر، اتصل بي الطبيب عرفات من هناك وأوصاني بك وبعهد، حمداً لله أني التقيتُ بك.. أنا الطبيب رحيم خان، أعمل في مستشفى دلهي للأورام.. لا تقلق؛ سأجري لها العملية وستكون بخير بإذن الله.
- إن شاء الله..
- أعتذر يا عمر أنّ الصدفة جمعتنا بهذه الصورة، أنت متبرع بكليتك لزوجتي، وأنا طبيب ابنتك.
- لا تقلق حيال الأمر؛ الأهم أن تكون عهد بخير.
- ستكون يا عمر، ستكون..

تمت العملية وخرج أبي معافى وزوجة الطبيب رحيم كذلك، أخبر الطبيب رحيم أبي أنه سيأخذني إلى مستشفى الأورام فلم يمانع أبي، ذهبتُ والطبيب إلى المستشفى لإجراء ما تبقى من فحوصات وتحديد زمن إجراء العملية المنتظرة التي كادت أن تودي بحياة أبي..

- عمر؟
- نعم، طبيب رحيم خان..
- أريد إخبارك بشيءٍ قبل أخذ عهد غدا..
- تفضل؟
- في الواقع هذا المرض لا يُشفى منه أحد، وإن كل هذه المحاولات في إنقاذ عهد ما هي إلا لإعطائها فرصة أكثر للعيش وتأخير الأمر المحسوم بوفاتها.. لا أعلم ما ستفعل في هذه اللحظة لكني لا أريد قتلك بالأمل فتوقع أسوأ الأمور يا عمر.. لن أخذلك؛ ستعود عهد إليك.
- أتقتلني قبل موعد قتلي أيها الطبيب؟! أتيتُ إلى هنا وأنا أثق تماماً أن عهد ستكون بخير، وسأعود وإياها إلى مصر..
- لا أريدك أن تُقتَل بالكذب يا عمر، والأفضل أن تتوقع أسوأ الأمور.. لتكن قوياً عند أي ظرف كان؛ فليس لعهد هنا سواك، لذا لا تضعف فأنت قوتها الوحيدة.. البارحة حين أخذتها لإجراء ما تبقى من الفحوصات لم تتوقف لحظةً عن حديثها عنك، ولا لحظة واحدة..
- يبدو أني سأموت قبلها..
- ماذا تقول يا عمر؟!
- لا أستطيع تحمل الفقد أكثر، لقد فقدت عزة وأبي وأمي وأختيّ، والآن الموت يتجول ذهاباً وإياباً بيني وبين عهد..
- لن يحدث شيء، سيكون كل شيء على ما يرام؛ ثق بالله يا رجل!
- ونعم بالله..

****

أعتذر لتنصتي لحديثكما.. أعتذر يا أبي على كل ما سمعته من قبل وما سمعته تلك اللحظة وما سمعته بعد ذلك؛ أنت تخفي عني الكثير، وتتحمل كل هذا الألم بمفردك لتنقذ ما تبقى من أمي أو ما تبقى منك، لكنّي كبرتُ على التجاهل، كبرت على عدم الاكتراث لشيء.. تجبرني على المعاناة بمفردي كما تعاني بمفردك.. كلانا محترفٌ في خلق الحياة للآخر، وكلانا في الحقيقة قد وافته المنية!

ليتني أستطيع التنصّت عليك الآن؛ ماذا تقول؟ أين أنت؟ وماذا حدث لك؟ أعطني مبرراً لأعذر غيابك المفاجئ، أمللت مني؟! أم أنك علمت أني تنصت عليك وتعاقبني؟! عُد؛ لا تعاقبني بهذه الطريقة، اختر ما يليق بي من عقاب، لكن ليس الفقد للمرة الثانية، يكفيني من الفقد أني سأفقد نفسي عما قريب ..

ماذا أستعيد من الوقت؟ أمي، أبي، أم أرجوه أن يتركني؟!

تراخت قبضاتي بيد أبي من تلقاء نفسها، فلا هو أفلتني، ولا أنا.. هناك من تسلل بيننا وفك عقدة أرواحنا، حلّها كالتاج من رأسِ ملك، استوطن الحنين مملكتنا بكامل قواه ليهزمنا، وهزمنا..

لابد للخير أن ينتصر، والشر وحده من يُهزَم؛ أما قلت هكذا؟! أيُعقل أنّي أنا ذلك الشر؟! وما إن بلغتُ السابعةَ عشر حتى انهرتُ تماماً، ساويتُ الأرض، بل أني تخللتها حتى سكنتُ تحتها.. لقد سمعت طبيباً يُدعى سام يقول أنني ربما سأعيش لسنةٍ أخرى وربما لا.. وقد تكون "ربما لا" هي الأرجح..

أمي.. إن كان أبي قد صعد إليكِ فتزيّني له وتأهبي لحضوري، وإن لم تجمعنا منازل الأرض فمن المؤكد أن السماء ستفعل ذلك..

****

(٢٨)

معادلة الحياة لم تكن عادلةً يوماً، تتبرع لي بأملٍ جديدٍ مقابل انتزاع آخر!

****

موعد عملية نخاع العظم.. التقارير أصبحت جاهزة، غرفة واسعة بسرير وستار أزرق، الكثير من الأطباء ومنهم الطبيب رحيم حولي، أصبحوا في التعداد مائة طبيب على ما بدا لرؤياي نتيجةً للمخدّر، أصواتٌ بدأت تتلاشى وصوتٌ يسألني عن عمري واسمي، هذه حقنة؛ أليس كذلك؟! حقنة تخرج من جسدي؛ متى أمست بي؟ وكيف لم أشعر بها؟! لم أعد أشعر بشيء، هل فقدت الوعي؟!

مر الوقت غير مبالياً باليوم أهو الأحد أم الثلاثاء.. لمَ لا أحد هنا؟ أين أبي؟ والطبيب، ما كان اسمه؟ رأسي يؤلمني، وصدري لا يحمل رذاذ الهواء الثقيل، ما هذا المكان؟ أتذكر أنها كانت غرفةً مغلفة بالأزرق فلماذا هي بيضاء الآن؟!

"تيت تيت تيت تيت".. ما هذا الصوت المؤذي؟ أني أرى بوضوحٍ الآن، الغرفة بيضاء حقاً! والكثير من الأسلاك متصلةٌ بيني وبين ذلك الجهاز ذي الصوت "تيت تيت تيت"، امرأة! من هي؟ ولماذا تنظر إليّ وتبتسم؟! إنها ترتدي شيئاً أبيضاً على رأسها، ولباساً على جسدها لا يبدو مألوفاً بالنسبة لي إلا أن لونه أخضر.. سمعتُ أحداً ينادي لها **بيال**..

- حمداً للربّ على سلامتك عهد.
- أين أنا؟
- في المستشفى، وأنتِ الآن بأفضل حالٍ بعد العملية..
- من أنتِ؟!
- الطبيبة بيال؛ زوجة الطبيب رحيم خان صديق والدكِ.
- أبي.. أين أبي؟!

- أبوكِ ذهب، وسيأتي قريباً.
- يأتي قريباً من أين؟ أين هو؟!
بدأتُ بالصراخ كما لو أن شيئاً اندفع من داخلي للنهوض للبحث عنه، أردت الهروب إلى أبي لكن لا أعلم أين هو! أتى ذلك الطبيب سريعاً ممسكاً بي "عهد! لا تتحركي، سيضرّكِ هذا.. اهدأي".. صرختُ به: "أين أبي؟" لمحتُ دمعةَ تلك الممرضة وخروجها سريعاً، انتابني شعورٌ مخيفٌ موحِش.. "أين أبي؟!"
إنها الحقنةُ مجدداً؛ تدخل جسدي وتخرج سريعاً، لمَ لا أشعر بهن؟! فقدت الوعي، وفقدت نفسي، وفقدت أبي.. كنت أعلم أني فقدته، لقد أخبرني دمع الممرضة أني أصبحت وحيدةً الآن.. أبي! أين ذهبت وتركتني هنا؟

مات أبي فاعتني به جيداً، اعتني بمن اعتنى بكِ من خلالي، انتظريه عند باب السماء كما أخبرني دوماً أنكِ ستفعلين، سأغمض عينيَّ وأتخيلكما هذه المرة كليكما، وأتلو المعوذات وآية الكرسي، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه مائة مرةٍ لأغفو في تمام التسعين فأراكما تتجولانِ بي..
- أتلتقيان بروحي عند نومي؟ لأني أراكما معاً كل ليلة..
أخفضي جناحيكِ، بقي القليل وآتي أنا أيضا.. سآتي..
مكثت الكثير من الشموس والأقمار في تلك الغرفة الزرقاء، وعدتُ إلى منزل الطبيب رحيم، اعتنى بي جيداً، أقصد اعتنى بكما جيداً..

****

أعتذر يا عهد فقد آذيتكِ بدمعي ذلك النهار، لكنّي لم أمتلك شجاعتكِ وتحمّلكِ للفقد المتبادل بين أقرب الناس لكِ، ضعفت أمام عينيكِ البريئتين فخرجتُ أجرُّ أذيال الخيبة؛ كيف لي أن أخبرك أن من باعني كليته لينقذكِ مات؟! نعم يا عزة، زوجك عمر أتٍ إليكِ؛ ألم يصل بعد؟!

تلقّينا خبر وفاته كصدمةِ وفاة ابنتي بارو، عزة؛ توفي عمر في حادث سير لم يرحم غُربته أو معاناة عهد أو أي شيءٍ آخر.. لقد أخبر رحيم أنه سيموت قبل عهد، أستجاب الرب له هذه المرة؟!

ما زلت أنتظر عودتكِ معي هذه المرة يا عهد، ما زلت أنتظركِ بكل ما أوتي الانتظار من قوة..

****

(٢٩)

الغربة هي أن تبدأ بتلقّي أجزاء من رسائل أنت كاتبُ بدايتها!

****

ها هو عيد كارفا شوت، آخر عيدٍ هندوسيٍّ في حياتي، احتفلتُ به مع عهد ورحيم خان حيثُ كان وجه القمر عهد.. اه صحيح؛ أنتِ لا تعرفين ما هو عيد كارفا شوت.. سأخبرك كما كانت عهد تفعل؛ عيد كارفا شوت هو عيد يأتي آخر الخريف، يبدأ من اليوم الرابع من محاق القمر في النصف الثاني من الشهر القمري (كريشنا باكستا) أي في تاريخ أكتوبر ونوفمبر (كارتيك) حسب التقويم الهندوسي.. تصوم فيه السيدات المتزوجات، أو الفتيات اللاتي ينتظرن أزواجهنّ للدعاء لهم بدوام الصحة وطول العمر، فيبدأن صيامهن منذ ظهور الشمس حتى طلوع القمر ليلاً، فيقف الرجال أمام زوجاتهم وهن بدورهنّ ينظرن عبر الغربال من القمر إلى وجوه أزواجهن ثم يطعموهن الوجبة المقدسة من الصحن النحاسي لكسر صيامهن.

ذهبتُ ورحيم خان إلى المستشفى في هذا العيد، لقد أبيتُ إلا أن تكون عهد هي وجه القمر التي سأرى رحيم من بعدها عبر الغربال، لقد سَعدتْ ورحيم بهذا العيد والقرار الذي اتخذتهُ، ليت كل أعيادي لا تأتي إلا وهما معي!

- رحيم؟
- نعم بيال، أنا في المكتبة؛ تعالي..
- أستذهب لرؤية عهد في المستشفى اليوم؟
- لابد لي من الذهاب يا بيال، لا أستطيع تركها وحدها وإن كانت إجازتي.
- لكن!
- أعلم أنه عيد كارفا شوت؛ أعدكِ أنني سآتي قبل طلوع القمر عزيزتي.

- لا عليكَ، سأذهب لأصلي وأدعوا أن تعود عهد لنا بأقرب وقت، لقد اشتقتُ لرؤيتها تجوب أرجاء المنزل..

- حسناً.. وأنا سأذهب أيضاً إلى المستشفى..

ذهب رحيم إليها؛ سيكون هذا أول عيد لا يجهّز فيه معي زينة الاحتفال كما عهدته دوماً.. بدأتُ على غير العادة بتجهيز الاحتفال بمفردي فخطرت ببالي فكرة نقل الاحتفال إليهما، بدأتُ بالتجهيزات والزينة والأكل ووجبة عهد المفضلة؛ حلوى الحليب بالجوز مع بعض الوجبات اليمنية، وذهبتُ إليهما عند الثامنة مساءً لأجد عهد تتلقى العلاج ورحيم معها يعتني بها، انتظرتُ خارجاً كي لا أؤذي عهد أثناء تلقيها العلاج، خرج رحيم ليجدني أنتظر؛ تفاجأ..

- بيال؟!

- أهلا..

- ماذا تفعلين هنا؟! أنتِ صائمة؛ ومؤكدٌ أنكِ متعبة من تجهيز الزينة بمفردكِ في المنزل..

- في الواقع لم أجهز أيّ زينة، أتيتُ إلى هنا لنحتفل جميعنا؛ أنت، أنا، وعهد.

- حقاً؟!

- نعم..

- لكن عهد الآن نائمة، ولا أظن أنها ستحتفل معنا!

- ستحتفل.. لا زالت في الثامنة مساء، يوجد لدينا وقتٌ كثيرٌ حتى الثانية عشر منتصف الليل.

- كم أنتِ مجنونة حقاً! حسناً إذاً؛ فلنجهّز طقوس الاحتفال في معبد المستشفى..

- حسناً..

بدأنا بتجهيزات الاحتفال من طقوسٍ وملابس ومأكولات، زَيَّنْتُ ورحيم المعبد وأعددتُ صحن الاحتفال بما يحتويه من **زجنفر** (صبغة حمراء اللون)، الماء، الحلوى المقدسة، وزهور

الإكليل أيضاً – تحبها عهد كثيراً – أضأنا الشموع وذهب رحيم للإتيان بعهد إلى مكان الاحتفال..

– عهد؟

– أهلا بابا رحيم.

– منذ متى وأنتِ يقظة؟

– لم يمضِ الكثيرُ من الوقت.

– كيف أصبحتِ الآن؟

– أشعر وكأنني بخير، الحمد لله..

– أتعلمين مَن هنا؟

– لا.. مَن؟

– بيال.

– خالة بيال! لماذا؟

– أتت لنحتفل معها بعيد كارفا شوت.

– ما هذا العيد أيضاً؟!

– عيد تصوم فيه المتزوجات لإمداد أعمار أزواجهن والدعاء أن يكونوا بخير.

– إذاً فلتذهب ولتحتفل؛ هذا الاحتفال لا يخصني..

– بلى يخصكِ؛ فأنتِ وجهه القمر الليلة يا عهد.. هيا بنا، إنّ بيال تنتظر في معبد المستشفى.

– حسناً.. حسناً.. لكن لن أسهر كثيراً.

– لن تفعلي هذا عزيزتي..

بعد مد وجزر بين رحيم وعهد نزلتْ أخيراً للاحتفال معنا، كانت هي وجه القمر المكتمل تلك الليلة.. يا لقوة هذه الفتاة! كنتُ أظن أن فتيات الهند فقط يمتلكن هذه القوة الجبارة في التحمل، لكن ما إن رأيتُ عهد حتى أدركت أن كلَّ فتاةٍ قويةٌ ولا تحتاج إلى الكثير من

الجيوش معها.. تذكرت حينها الملكة جانسي، وكانت قد حكتْ لي الكثير عن الملكتين بلقيس وأروى..

طلع قمر على قلبي، إنها عهد؛ ما إن رأيتُها خلال الغربال وانتقلتُ من وجهها الحسن إلى وجه رحيم حتى شعرتُ أنَّ رحيم سيدوم لي إلى الأبد ولن يُصيبه أي مكروه.. كل ذلك الأمل انبثق من سحرِ ابتسامتها التي لطالما أذابتْ قلبَ رحيم فلم يبقَ في فيه سوى جمال ابتسامتها التي أحيت قلب رحيم وكأنها أحيت قلوب أهل تلك المنطقة بأكملها.. آهٍ يا عهد كم افتقدتُك!

****

(٣٠)

الرسالة الثلاثون الموجهة لكِ..

****

تلك اللحظات التي لم تنقذها، وتلك الورقة التي ترمقها مصعوقة لما يحدث لم تستطع فكْ قيدها لتحرر عهد من سكرات ذلك الموت أو على الأقل تتوسل له.. لم تكن السماء ساكنةً وبهيَّةً ولامعةً كما كانت عند رحيلكِ؛ بدت أكثر غربةً وحيرةً وحزناً، تبكي أمطارها، وتحتضن غيومها مواسية، تضرب الرعود معبرةً عن قلة حيلتها..

رحلتْ من أعادتْ إليّ الحياة بعد رحيل بارو، لكنها لم ترحل كُليّاً، لقد تركتْ شيئاً بي هنا في أعماقي ليتفنن في نقش الندوب، وهو لن يعتقني حتى آتي إليكم.

لا تسأليني عن رحيم خان، فهو لم يعد خان بل بات دخاناً حتى تلاشى وبدأ يختفي.. شحوب وجهه يعكس ألمه الذي يسكنه ولا يريد مغادرته، برودٌ تغشّى ملامحه كأنّه تفرّد بوحدته مرة أخرى!

تركتْ عهد الحياة في الشهر الأخير من عام ١٩٩٠م، انتهى العام وانتهت أحداث عهد، وانتهيتُ وانتهى رحيم.. ديسمبر المشؤوم اختطفها وأتاني مُعزّياً.. عاد رحيم إلى المنزل في ليلةٍ ماطرةٍ يخبرني أن عهد رحلت إليكِ..، تفجّرت الكلمات من فمه، وبللت الدموع جفنيه لتعازي خدّه، احتضن وجهه بيديه وسال ما سال من الألم، كأنما يبكي عهد لتخرج منه.. تلقى مسمعي ما تلقى من حزن رحيم، لكنه لم يكن مبللاً بل جافاً، جافّاً تماماً حتى أصبتُ بالصمم منه.. اندفعتْ نقاط ذلك الخبر من بندقيةٍ أو ربما مدفعية؛ يجتاحني ريبٌ أنها من فمِ رحيم..

انتصر الوزير وذهب متبسماً؛ لقد كسب الرهان، والخسران هو من نصيب تلك الورقة الوحيدة الراجفة التي ستسقط بعد قليل، لم يتم تحديد مصير عهد بتلك الورقة بل حُدِّدَ مصير تلك الورقة بعهد..

يا للسخرية حقاً! أعطيتُها أمل الحياة والرجوع بقصةِ رانبير؛ وها هي قد رحلت، كذبتُ على روحها البريئة بالحياة والشفاء لكن الموت ضمها إليه ضمةً حنونةً جداً ليخلّصها من هذا العالم المزيف، وهي الحقيقة.. الحقيقة الوحيدة التي وجدت في دفتي الزيف هنا..

لم أكن أعلم أنه سيكون آخر عيدٍ لي في الهندوسية، وآخر عيدٍ لعهد في الحياة، مرَّ ما يقارب الأربعة أشهر على وفاة عهد، أوفت الورقة في غصن الشجرة عهدها، إلا أن الوزير السرطان كان الأقوى؛ لقد أوقد بها حرباً وقاتل حتى أخذها مني ومن رحيم، وها هي الآن عندكِ يا عزة.. أصبحتْ عائلتكِ وابنتي بارو عندكِ الآن، اعتني بهم في السماء، وسأعتني بما تبقى مني، ورحيم هاهنا من أجل عهدان – عهد عمر، وعهد رحيم – وبارو... أخبرتُ عطر وخالد عما حدث لعهد، أتى ثلاثتهم إلى الهند لإقامةِ مراسيم العزاء كما يليقُ بدينكم أولاً وبعاداتكم ثانياً.. ثلاثتهم! نعم لقد كانوا ثلاثة خالد وعطر وابنها بدر البالغ من العمر ثمان سنوات..

الفاتحةُ على روحها الكريمة، والأذان المقيم على صرح قلبها كلّ الثامن عشر من أغسطس لن يتوقف.. سأزورها كل جمعة وأقرأ عليها ما حفظتُ من آيات.. رحمها الله..

****

(٣١)

رسالتي الأولى لعهد..

****

عهد..

قرأتُ كلَّ ما كتبتِهِ لأمكِ مذ كنتِ في الخامسة عشر، وأكملتُ عنكِ حتى سنّ الثامن عشرة، حين تركتِ رسائلكِ تجفُ في السابعة عشر وطال انتظارها لكِ، وأعقبتُ عليها برسائل وددتُ أن تسمعني كما تمنيتِ دائماً، أردتُ أخباركِ أنكِ بارعة جداً في صياغة تعاليم الإسلام وحديثَكِ الشامل عن الديانات الثلاث التي تعرفتِ عليهن خلال حياتكِ – الإسلام واليهودية والهندوسية – مؤكد لو أنّ والدتكِ قرأت رسائلكِ لها لما كانت سألت أحداً عن الإسلام أو عن حالكِ كيف كان؟ يُراودكِ الشك أليس كذلك؟! ما الذي سيجعل الطبيبة بيال الهندوسية تتحدث عن الإسلام بهذه الطريقة بالرغم أن زوجها مسلمٌ ولم تتحدث هكذا من قبل؟!

أتعلمين؟ لقد أسلمتُ.. نعم؛ نطقتها: أشهدتُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. سيغفر الله لأمكِ ولي كل ما قد سلف من ديانتنا، أخبرني رحيم أن الله غفورٌ رحيم، وقد كتبتِ أيضاً أنه أقرب إلينا من حبل الوريد.. هو حقاً كذلك، لقد دعوته أن يرزقني بطفلٍ بعد أن عجز الأطباء عن إيجاد علاج لي لأنجب مرةً أخرى بعد وفاة بارو رحمها الله ولم تُجدِ نفعاً جميع تلك الأدوية.. وها هي ابنتي عهد رحيم خان أتت بفضل الله.. لا تجعلي من الدهشة أن تصيب قلبكِ، أحببتكِ يا عهد حباً لم تُحبِه أمٌّ لابنتها، أريد أن تكون الصغيرة عهد كما أنتِ تماماً؛ سأحرص على إنباتها على هذا النحو..

أخبري بارو عني أني قد اشتقت لها، أخبريها يا عهد أنكِ أختها وابنتي من رحم الحياة، أخبريها أيضا أن اليمن أتتني بفتاةٍ مثلكِ قوية، لم تخف أبداً.. اجعليها قويةً مثلكِ..

لقد ذهبت عن الدنيا بالتهام ذلك الحريق لجسدها الصغير، ذهبتْ وهي تبكي، لم أحتضنها حتى، لكنّي احتضنتكِ، وأمكِ احتضنتها.. وأنتِ الآن عند أمكِ فلا تتركي بارو بمفردها.. رحيم.. أتسألين عن قلب رحيم؟ لقد فقد قلبه منذ فقدكِ، وما إن أتت عهد رحيم خان حتى بدأت روحه تعود، أسميتها عهد علّ رحيم يكون بخير.. لا تقلقي سأعتني به؛ أعدكِ..

أمُّكِ بيال

****

(تـمت)

(٣٢)

اتركها تأتي كما شاء الله، وأنهِها كيفما تشاء..

****

النهاية..!

وتستمر النهاية التي لا نهاية لها.. كلامٌ غريب؛ كيف للنهاية أن تستمر؟! أما تلاحظ أن لكلّ بدايةٍ نهاية؟ وكل نهايةٍ هي نقطة بداية جديدة؟ حسناً أعرني انتباهك لأضرب لك مثلاً في حياتك؛ بدأت المدرسة، تخرجت من المدرسة، بدأت المعهد، أكملت المعهد، بدأت الجامعة، أتممت الجامعة، بحثت عن عمل، ترقّيت، أمسكت زمام الأمور هناك، أورثتها لأبنائك.. ثم ماذا؟!

ثم تجدُ أنك تعيش وتتأقلم وأحياناً كثيرة تجعل من الواقع المحيط بك يتأقلم بما تريد أنت، كأن تسحب منه صلاحية التضاريس وتلبسها.. لا نهاية في الحركة في صعود الحجاب الحاجز ونزوله، في دخول الهواء وخروجه، النهاية الحقيقة تأتي في السكون؛ في الجمود، ألست مقتنعاً بهذا؟!

اسأل تلك الكرات الحمراء بدمك لو تعطيها قسطاً من الراحة لانقطع الأكسجين، لا بأس اعطها قسطاً من الراحة مقابل العمل لوقت إضافي؟! أيستوعب جسمك ضعف ما يتلقى في العادة؟! سيُدمَّر سريعاً بلا أدنى شك.. سر في حياتك كأنه آخر يوم لك، واستمتع بما تعمل كأنها البداية، اجعلها البداية بنفس الشغف والحماس والقوة، تصالح مع ذاتك والوقت؛ لن تحتاج أحداً بعد أن تُحدث هذا التصالح، وتأكد أنك لن تنتهي ما دام قلبك وعقلك يركضان، وأن النهاية تأتي فعلاً عند التوقف؛ لذا أركض كما تريد، وجرب ما تخافهُ لمرّةٍ على الأقل، لعلّ ما تريده سيختفي عند اختفاء خوفك منه، وسيفعل ذلك بلا شك.. كن أنت، تفرد حتى وإن فشلت، واجعل من النهاياتِ بداياتٍ تستحق أن تُذكَر.. كن أنت وجه المقارنة لذاتك، ولا تجعل من نهايات الآخرين بدايةً لك، ولا تجاربهم الفاشلة فشلاً لك.. فقط آمِن بنفسك..

عهود

عن الكاتبة

- عهود سمير العديل
- من محافظة المحويت – اليمن.
- من مواليد عام ١٩٩٧م – صنعاء.
- طالبة سنة ثالثة تخصص نظم معلومات إدارية، جامعة سبأ – صنعاء.

****

سرطان
في غصن شجرة

هذا الكتاب:

استلقيت على فراشي
أفكر فيكِ وأبي،
ديانتكما،
كِلاكُما تؤيدان السلام،
تؤديان طقوسكما بشكلٍ مختلف،
محرابكِ وسجادته،
أدعيتكِ ومسبحته،
ألحانكِ وترتيله،
أعيادكِ وأعياده،
صيامكما،
سبْتُكِ وجمعته،
كتابكِ المقدس وقرآنه،
كنتما شيئين مكملين لبعضهما..